

شاعر الشعب وشاعر النيل

دكتور يوسف نوفل

مشاهير الشعراء العرب للشباب والناشئين

الناشـــر : الـدار المصريـة اللبنانيـة
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ٤٧٩٦ / ٩٧
الترقيم الدولى :2 - 343 - 270 - 977
جمع وطبـع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ـ٣٠٣٦٠٩٨

الطبعة الأولى : محرم ١٤١٨ هـــ مـايـو ١٩٩٧م .

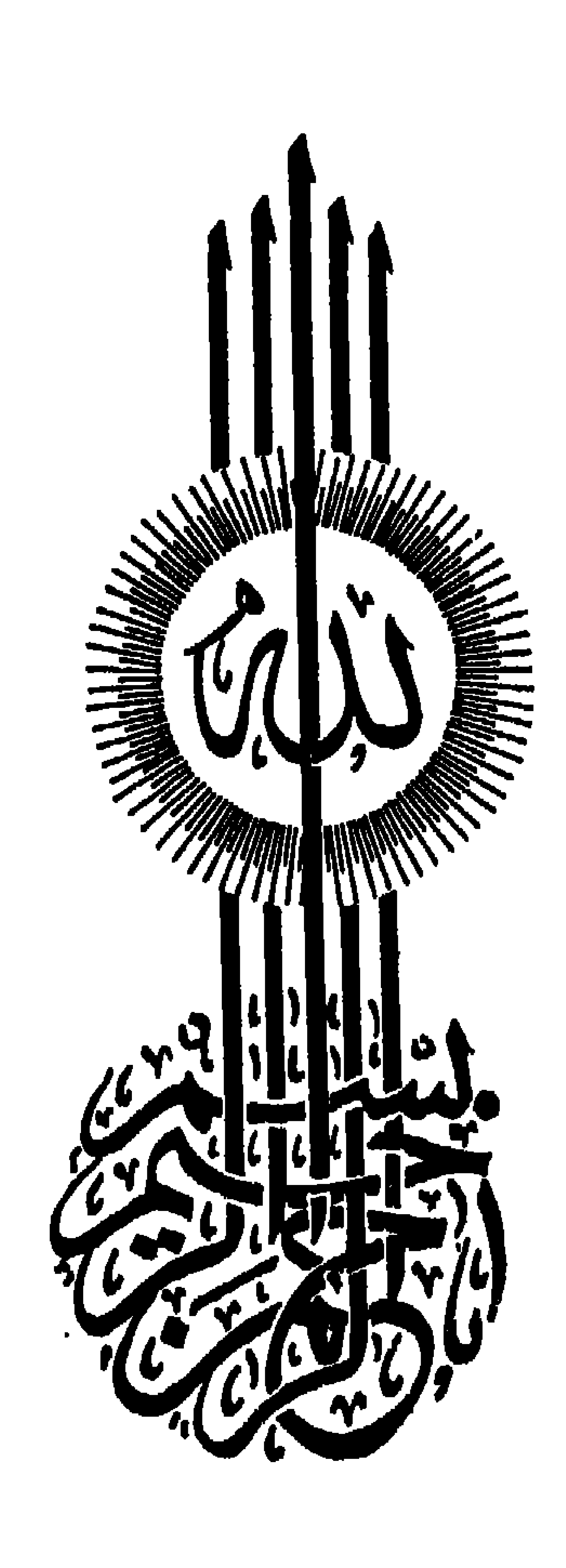
حافظ ابراهيم

حافظ إبراهيم

شاعر الشعب وشاعر النيل

دكتور يوسف نوفل

الناشر
الدار المصرية اللبنانية


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الشعر ديوان العرب . . وسجل حياتهم . .

والشعراء هم أصحاب الرأى والتعبيز على مرِّ العصور . .

ومن مظاهر تقدير العرب للشعراء أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن المزاهر - كما يصنعون فى الأفراح - لأن الشاعر كان لسان القبيلة ، وهو الذى يمثل الحماية لأعراض الناس ، وهو المدافع عن أحسابهم ، والمُفاخِر بمآثِرهم . . والمُمجِّدُ لذكرهم .

وكان العرب لا يهنئون إلا بغلامٍ يُولَد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج . . !

وقد أجمع دارسو الأدب العربى على أن الشعر يمثل جوهر الثقافة العربية ، حتى أن أية دراسة عن الشعر العربى يمكن أن تكون دراسة عن الثقافة العربية والوجدان العربى معًا .

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسّموا عصور الأدب العربى إلى مراحل متتالية . . وربما اعتمد هذا التقسيم على النظرة السياسية . . أو التغيُّر السياسى داخل المجتمع ، مما يؤثر ويتفاعل مع تطور الشعر وأساليب تعبيره . .

- فالعصر الجاهلى مثلاً يبدأ قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وينتهى بظهور الدعوة الإسلامية . .

- ويبدأ العصر الإسلامى منذ ظهور الدعوة . . وينتهى بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين . . وظهور الدولة الأموية سنة ٤١ هـ .

- ويبدأ العصر الأُموى منذ ولاية معاوية بن أبى سفيان سنة ٤١ هـ حتى قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

- أما العصر العباسى الأول يبدأ بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى قيام دولة بنى بويه عام ٢٣٤ هـ .

- ويبدأ العصر العباسى الثانى منذ قيام دولة بنى بويه حتى هجوم المغول على بغدادسنة ٦٥٦ هـ وانقسام الدولة العربية الكبرى إلى دول صغرى وإمارات شرقاً وغرباً .

- ثـم يبدأ عصر النهضة الحديثة منذ قيام دولة محمد على حتى وقتنا الراهن . .

وهو تقسيم لا نظن أنه يخضع لحدود قاطعة فاصلة لكل عصر تبدأ وتنتهى بقيام دولة وسقوط أخرى . . ولا نظن أيضاً أن الأدب يمكن أن يغير جلده هكذا بين يوم وليلة - كما تتغير الظروف السياسية - وإنما يعنى هذا التقسيم أن ملامح الأدب فى عصر ما تستكمل مقوماتها فى ظل ظروف سياسية واجتماعية معينة ، وتخفت بعض من ملامح أو يضاف إليه ملامح أخرى فى عصر تالٍ . . وهكذا !!

ولابد أن الشعراء الذين أخلصوا لفنهم كانت لهم مواقفهم المتباينة فى ظلال هذه العصور المتتالية ، فلم يكن ذكرهم خافتاً ، ولا لونهم باهتاً ، ولا صوتهم ضائعاً فى زحام التحولات السياسية المختلفة ، ومن ثن تنوع ولاؤهم ، وتميزت أساليبهم ، وتعددت مذاقاتهم ورُؤَاهُم وتجاربهم ، متجاوزوا سَمْتَ العصر ، واخترقوا حاجِزَ الزمن ، ليصلوا إلينا شامخين قادرين معبرين عن جوهر الإحساس الإنسانى ، على حين أسول الزمن على مَنْ لم

يمتلك هذه القدرة عباءته السوداء ، خطواهم فى جُبِّ النسيان ، لأنهم لم يفلحوا فى التعبير عن عصرهم ، ولا استطاعوا أن يصلوا إلينا كما وصل غيرهم .

ولا شك أن القارىء المعاصر ـ فى زحام الحياة الضاغطة المهمومة ـ فى حاجة ملحَّة إلى الاقتراب من عالم الشعر ـ قديمه ومعاصره ـ فى أبرز نماذج ، وأفضل شعرائه ، وتنوع مذاقاته ، واختلاف بيئاته ، لكى يقف على عظمة هذا الفن العربى الذى تقدَّمَ كُلَّ شىء ، وأحرز السبق على غيره من الفنون العربية .

ونعتقد أن هذه العظمة هى جزء من عظمة التاريخ العربى والحضارة العربية . . وهى أيضاً بطاقة عبور صادقة إلى كل ما هو ساطع وناصع فى السماء العربية ، تتحدى الغيم ، وعَصْفَ الريح ، واعتداء الساخطين على مقدرات هذه الأمة العريقة .

ولأن الشاعر شاهد على عصره ،فقد أولينا هذا المعنى اهتماماتنا واختياراتنا ، فوقفنا فى باب كل عصر نطرقه ، ونستخلص منه كنوزه الشعرية التى تمثله خير تمثيل .

وآثرنا فى خطتنا أكثر من عنصر يكمل دائرة الفائدة . . أهمها :

أولاً : أنها سلسلة موجهة للشباب والناشئة . . لهذا فإنها تتخذ منهجاً مختلفاً يبتعد ـ بقدر الإمكان ـ عن المناهج الأكاديمية التى قد يعافها ذوق أولادنا .

ويلتزم هذا المنهج تقديم الشاعر من خلال سيرة حياته بأسلوب مبسط يجمع بين الدراما والسَّرد والنص الشعرى . . يهدف كسر الملل والرتابة . . وتقريب القارىء الشاب إلى عالم الشاعر الإنسانى والفنى معاً . . بحيث يخرج القارىء من الكتاب بمعرفة غير محدودة

بالشاعر وعصره وتجربته الشعرية وأثرها فى مسيرة الشعر العربى . . وكيف نقل الشاعر بحسّه وقدرته مشاعره وأفكاره إلى عصره ومجتمعه بل إلى عصرنا الراهن فى إيجابية وعطاء ممتد متجدد .

ثانياً : أن يكتب عن هؤلاء الشعراء أساتذة وأدباء شعراء ممتازون ، على درجة عالية من الرغبة الداخلية فى هذه المشاركة ، والإيمان العميق بجدوى هذه الرسالة ، والقدرة على العرض والتبسيط والالتزام بخطة السلسلة .

ثالثاً : أن تبدأ هذه السلسلة بالشعراء المعاصرين باعتبار أن القارىء المعاصر قريب إلى حسّ هؤلاء الشعراء وتجاربهم ولغتهم وخيالهم . . ثم نعود القهقرى إلى العصور السابقة ، وقد تسلح القارىء بذخيرة من الفهم والتذوق تجعله يقحم تلك العصور فى شغف وإقبال .

رابعاً : ألاّ تقتصر هذه السلسلة على تقديم شعراء بعينهم فى بيئة بعينها ، وإنما هى تنظر إلى خريطة الشعر العربى من المحيط إلى الخليج فى وحدة فنية مترابطة ، تحقق للقارىء المعاصر هذا الحسّ العربى الممتاز الذى لا يدانيه حسّ آخر فى أى منطقة من العالم .

. . . .

ولابد أن المهمة على هذا النحو صعبة ودقيقة . . !

لكننا على يقين أن الإخلاص والإيمان بجدوى ما نُقبل عليه كفيلان بتذليل كل الصعاب ، وتيسير كل الدروب العسيرة ، وتقدير كل قاصٍ وبعيد .

ولا نملك فى نهاية هذه العجالة إلا أن نشكر من كل قلوبنا كل من أسهم فى إذكاء نار الحماس لإصدار هذه السلسة الجميلة من الأساتذة والأدباء والشعراء المشاركين .

كما لا نستطيع أن نغفل ترحيب الصديق الناشر محمد رشاد .. حينما تقدمنا إليه بهذه الفكرة ، وكيف أصر على إخراجها بهذا المنهج الخاص ، الذى نتمنى أن يكون مختلفاً عن أى منهج سابق .

أما الصديق العالم اللغوى المدقق الأستاذ محمد فتحى أبو بكر . . فله من القلب كل الدعاء وكل الشكر على ما يبذله من جهد خَلَّاق متفانٍ وراء كل كلمة ، وكل جملة ، وكل إضافة جيدة .

ولك أيها القارىء الشاب . . هذا العمل الذى يمثل عصارة قلوب الذين شاركونا بالحب والعطاء . !

والله الموفق ،

أحمد سويلم

مولود على ضفاف النيل :

فى صعيد مصر ، وأمام بلدة « ديروط » (١) ، وعلى شاطىء نهر النيل رسَتْ سفينة بسكّانها ، المقيمين بها ، وهم أسرة المهندس إبراهيم (أفندى) فهمى ، أحد المهندسين المشرفين على قناطر تلك البلدة .

وذات يوم من أيام عام ١٨٧٢ رَزَقَ اللَّه هذا المهندس الأب ابناً سمَّاه «محمد حافظ » ، الذى قُدِّر له بعد ذلك أن يكون « شاعر النيل » ، إذْ وُلِدَ على شاطئه ، وعلى صفحة مياهه وهمسها ، وعلى صدى خريرها ووشوشتها، ومع تغريد الطيور المرفرفة ، وأشعة الشمس الزاهية . فرح الأب والأم ، ومضت الأيام مع الأب المهندس « إبراهيم فهمى » والأم السيدة «هدى» ، بدون أن ينجبا ابناً آخر غير « حافظ » ، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى تُوفى أبوه فى ديروط ، فانتقلت به أمه إلى القاهرة .

حافظ فى القاهرة :

وفى القاهرة بدأ حياة جديدة بعد وفاة أبيه ، وانتقل إلى رعاية خاله الذى ألحقه بالمدرسة الخيرية بالقلعة (٢) ليتعلم القراءة والكتابة وبعض الحساب ، ثم بمدرسة ابتدائية ، ثم بمدرسة المبتديان ، فالمدرسة الخديوية ، حتى انتقل مع خاله الذى كان يعمل مهندساً للتنظيم فى طنطا .

---

(١) مركز من مراكز محافظة أسيوط ، تشتهر بزراعة القطن والقصب .
(٢) قلعة صلاح الدين الأيوبى بالقاهرة .

ثم عاد إلى القاهرة مرة أخرى بعد ترك مهنة المحاماة ليلتحق بالمدرسة الحربية .

ولعله بذلك يضع الشاعر محمود سامى البارودى نصب عينيه ، ذلك الشاعر الذى كان صاحب السيف والقلم ، أى جامعاً بين العمل العسكرى والفن الشعرى .

وفى سن العشرين تخرج حافظ فى المدرسة الحربية سنه ١٣٠٩ هـ / ١٨٩١ م ، ليعين فيها ، ثم تتعدد وظائفه فى الشرطة بمصر ، وبالسودان .

وبعد عودته من السودان وجد نفسه بلا عمل ، حتى عُيِّن رئيساً للقسم الأدبى بدار الكتب المصرية ، وظل فى هذا العمل قرابة عشرين سنة .

حافظ فى طنطا :

وفى طنطا، وفى سنة١٣٠٥هـ / ١٨٨٨ م ، وعمره ستة عشر عاماً تقريباً، يتعرف « حافظ » على أصدقاء يحدثوننا عنه ، ويصفه أحدهم بأنه : «غضّ الإهاب ، جديد الشباب ، به ظُرف ولُطف محاضرة ، وبديهة مطاوعة، وسرعة خاطر ، وحضور نادرة ، وسعة اطلاع ، وحفظ للشعر » .

كما يتحدث أصدقاؤه عن حفظه الشعر ، حيث كانت تدور بينه وبينهم مطارحات شعرية ومسامرات أدبية وتبادل لنوادر الأدب من جيد الشعر ، مما يكشف عن حفظه الكثير منه ، وعن محاولة التأليف بتقليد ما يحفظ ، وكأنه فى مدرسة شعرية يعلم نفسه ويدربها .

وجد حافظ نفسه لاينتسب لمدرسة ، ولايعمل عملاً، فشعر أنه يمثل عبئاً على خاله ، فاتجه إليه ببيتين من شعره الذى يعبر عن بساطة لغته ، وصدق عاطفته ، وشدة ألمه ، وإحساسه باليتم والفقر ، والحزن والألم ، مع تهكم وسخرية ، قال :

ثَقُـلَـتْ عـليـكَ مَئُونَتي　　إنّـى أراهـا وَاهِيـةْ[1]
فـافـرحْ فـإنى ذاهِـبٌ　　مُتَـوَجِّـهٌ فى «داهِـيهْ»

حب الطبيعة :

نحن أمام شاعر مرهف ، وُلد على ضفاف النيل ، فاستنشق ـ أول ما استنشق ـ نسماته وهواءه النقى ، ورأى ـ أول مارأى ـ جمال الطبيعة وسحرها وسمع أول ماسمع ـ خرير المياه ، وهمس الموج ، وأهازيج الطيور ومن المتوقع من شاب نشأ فى أحضان النيل أن يعجب بجمال الكون والكائنات ، فنراه ذات يوم يعجب بالطائر المعروف باسم (اللقلق) ، والمسمَّى بمصر (البشروش) ، كان ذلك فى حديقة مدرسة الفرير بطنطا ، ولإعجابه بهذا الطائر أخذ يتأمل حركاته وسكناته ، ففكر فى أن يلفت انتباهه بتحريك حلقة باب المدرسة ليستمتع برؤية حركاته المتنوعة ، مما لفت نظر المشرفين على المدرسة وضايقهم ، ودفعهم إلى منعه من ذلك . ومن حبه الطبيعة وصْفه بعض مظاهرها . من ذلك قصيدته عن الشمس :

لاحَ[2] منها حاجبٌ للنّاظِرينْ　　فَنَسُوا فى اللّيل وَضّاحَ الجَبِينْ[3]
ومَحَتْ آيَتُـها[4] آيَـتَه　　وتَبَدَّتْ فتنـةً للعالَمِينْ
نَظَرَ ابراهامُ فيـها نَظْرَةً　　فأَرَى الشَّكَّ ومـا ضَلَّ اليَقينْ[5]
قال : ذا رَبِّى ، فلمّا أَفَلَتْ　　قَالَ : إنِّى لا أُحِبّ الآفِلِينْ[6]

---

(١) المئونة : القوت والطعام . . واهية : ضعيفة .
(٢) لاح : ظهر .
(٣) وضاح الجبين : القمر .
(٤) دليلها .
(٥) أبراهام : لغة فى إبراهيم ، وهو نبى الله إبراهيم الخليل عليه السلام . وبشير بذلك إلى ما قصه الله تعالى فى القرآن فى سورة الأنعام عن إبراهيم عليه السلام ؛ قال تعالى : (فلما رأى الشمس بازغة) الآية وقوله : « فأرى الشك » الخ ، أى أظهر لقومه أنه شك فى الإله لكى يهديهم إليه . وهو متيقن وجوده
(٦) أفلت : غابت .

وَدَعـا القَـــوم إلى خـــالِقِـــها ... وأَتى القـومَ بسُلْطـانٍ مُبينْ (١)

حافظ إبراهيم المحامى :

ضاقت بحافظ السبل وهو فى طنطا ، وشعرَ بالحاجة إلى المال بعد أن غادر بيت خاله ، وهنا تنبّه إلى ما وهبه الله من طلاقة اللسان ، والقدرة على المحاورة . فاتجه إلى المحاماة ، فعمل محاميًا بمكتب بعض المحامين بطنطا ، ثم ملَّ هذا العملُ الذى يحتاج إلى الدقة بدراسة القضايا وكتابة الوقائع والأحداث وإعداد المرافعات ، فقرر مغادرة طنطا إلى القاهرة ليلتحق بالمدرسة الحربية .

تحمله الشدائد والشكوى :

وقد لمعت فى حياته شدائد كثيرة منذ صغره ، فقد مات والده وهو صغير، كما نشأ فقيرًا ، إذْ لم يترك له أبوه مالاً ، فعاش معدماً ، كما أنه لم يوفق فى عمله ، وزادت رهافة حسه وقوة شعوره من إحساسه ، مما جعله شاكياً دائماً كما يبدو من شعره .

من ذلك قصيدته فى غلاء الأسعار :

أَيُّهاَ المُصْـلِحُونَ ضـاقَ بِنَا العَيْـ ... ـشُ ولَمْ تُحْسنُوا عَلَيْه القياماَ

عَزَّت (٢) السِّلْعَةُ الـذَّليلةُ حَتَّى ... باتَ مَسْحُ الحذاءِ خَطْباً جُسامًا (٣)

وغَدَا القُوتُ فى يد النّاس كاليا ... قُوتِ حتّى نَوَى الفَقيرُ الصِّيامِا

يقطـعُ الـيومَ طَـاوِياً ولَـــدَيْهِ ... دُونَ ريحِ القُتارِ ريحُ الخزامى(٤)

---

(١) السلطان : الحجة .
(٢) عَزَّت قَلَّت .
(٣) السلعة : المتاع المتجر فيه . والخطب الجسام : العظيم .
(٤) طاويا جائعا . والقتار (بالضم) : ريح الشواء . والخزامى : نوع من الرياحين ، وزهره من أطيب الأزهار نفحة . يقول : إن ريح ذاك الزهر أقل شأنا عنده من ريح الشواء لحاجته إلى الثانى دون الأول

وقوله ينقد بعض تصرّفات الناس فى عصره :

حَطَمْتُ اليَرَاعَ فلا تَعْجَبِي ... وعفْتُ البَيَانَ فلاتَعْتُبِى [1]

حافظ إبراهيم فى السودان :

عمل حافظ فى السودان الشرقى ، لكنه سرعان ماضاق بالإقامة هناك ، وأخذ يرسل شكاواه إلى أصدقائه ويعبرّ عن حنينه إليهم ، وبخاصة الإمام محمد عبده ، وزاد من ذلك كراهية اللّورد الإنجليزى « كيتشنر» [2] له ، وخلافه مع رئيس له ، مما جعله يهجوه هو وأصحابه قائلاً :

تراه إذْ ينفخُ فى المزمارِ ... تحسبُه فى رُتْبةِ السّردار [3]
يجتنبُ العاقِلَ والنّبيها ... ويعشقُ الجاهلَ والسَّفيها

وقد أفادَ من خبرته بالمحاماة ، وأفاد فيها فى السودان حين قام بالدفاع عن زملائه الضباط ، ثم عاد إلى مصر بعد أن تشوّق إليها :

فمَنْ لى أَنْ أَرى تلك المغانى [4] ... ومافيها مِنَ الحسْن المقيم
وها أنا بين أنياب المنايا [5] ... وتحتَ براثنِ [6] الخطْبِ الجَسِيم [7]

(١) اليراع : القلم . . عفتُ : فاكرهتُ : البيان : الأدب .
(٢) هو اللورد هربرت كيتشنر (١٨٥٠ ـ ١٩١٦) ، وهو مارشال إنجليزى فتح أم درمان بالسودان ، وكان وزير الحربية (١٩١٤ ـ ١٩١٦) .
(٣) رتبة عسكرية إنجليزية .
(٤) يقصد الأماكن الجميلة بمصر .
(٥) المنايا : جمع منية : الموت .
(٦) مخالب .
(٧) المشكلة الصعبة .

هو والإمام محمد عبده :

قويت صلة حافظ إبراهيم بالإمام الشيخ محمد عبده الذى كان من أبرز زعماء الوطنية والإصلاح ، فكان كلما شعر بحزن أو ضيق وهو فى السودان يكتب إليه ويراسله .

ولما عاد من السودان وجد سلواه فى مجلس الأستاذ الإمام ، وفى ندوته التى كانت تتم فى بيته فى عين شمس فى إحدى ضواحى القاهرة آنذاك ، حيث كان يذهب إليه ، وينشده شعره ، كما كان يتلقى عطف الأستاذ عليه ، واهتمامه به ، ويأخذ عنه العلم ، ولم تقتصر مجالسه على الشيخ الإمام فقط ، بل شملت غيره .

أما علاقته بالشيخ محمد عبده فنرى فى شعره الكثير مما يعَبّر عنها ، يقول له مستعطفاً :

لقد بتُّ محسودًا عليك لأننى فتاكَ وهل غير المُنَعَّم يُحْسَدُ
فلا تُبْلِغِ الحُسَّادَ منى شماتةً فَفِعْلُكَ محمودٌ وأنت مُحَمَّدُ

لقد كان حريصًا على حضور بعض دروس الإمام فى منزله بضاحية عين شمس ، وقد يصحبه فى أسفاره ، وحين مات الإمام رثاه فى أكثر من قصيدة ومنها قوله :

سلامٌ على الإسلام بعد محمد سلامٌ على أيَّامِهِ النَّضِرَاتِ
فَوا لَهفى والقبر بينى وبينه على نظرة من تلكمُ النظرات

هو والزعيم سعد زغلول :

ومن الذين اتصل بهم حافظ وجلس فى مجالسهم الزعيم الوطنى سعد زغلول ، وحين تعرض سعد زغلول لحادث اعتداء قال حافظ :

أَحْمَدُ اللهَ إذْ سلمتَ لمصرٍ   قَدْ رماها فى قلبها مَنْ رماكا
أَحْمَدُ اللهَ إذْ سلمتَ لمصرٍ   ليس فيها ليوم جِدٍّ سِواكا
أحمد اللهَ إذْ سلمتَ لمصرٍ   ووقاها[1] بلطفهِ مَنْ وقاكا
قد شُغِلْنا ياسعدُ عن كلِّ شىءٍ   وشُغِلْنا بأنْ يتمّ شفاكا

وقال عنه فى قصيدة أخرى مطلعها :

الشعبُ يدعو الله يازغلول   أنْ يستقلّ[2] على يديك النيل

ويتحدث عن شجاعته :

النسر يطمع أن يصيد بأرضنا   سنريه كيف يصيده زغلول [3]

وطه حسين ، حيث قال له متحدثاً عن دوره فى التعليم الجامعى :

وأَخْصَبَتْ أرجاءُ مصرٍ بمَنْ   صَيَّرَ مِصْرًا كُلَّهَا جامعه

وهو يهنىء الإمام الشيخ محمد عبده بمنصب الإفتاء :

لئن ظفر الإفتاء منك بفاضل   لقد ظفر الإسلام منك بأفضل

ولما مات الإمام رثاه حافظ بقصيدة مطوّلة نشرت فى ٢٢/ ٨/ ١٩٠٥م :

---

(١) وقاها : حفظها .
(٢) يستقل : يتحرر من الاستعمار الإنجليزى .
(٣) يقابل بين النسر وزغلول الحمام فى مقابلة متصورة مع اسم سعد زغلول

رثاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

سَلامٌ على الإِسْلامِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... سَلامٌ على أيامِه النَّضِرات (١)
على الدِّين والدُّنيا، على العِلْمِ والحِجا (٢) ... على البرِّ والتَّقْوى، على الحَسَنات
لقد كنتُ أَخْشَى عادِيَ المَوْتِ قَبْلَه ... فأصْبحتُ أخْشَى أنْ تَطُولَ حياتي
فَوَالهَفى - والقَبْرُ بَيني وبَيْنَه - ... على نَظْرَةٍ منْ تِلْكُمُ النَّظَراتِ (٣)
وقَفْتُ عليه حاسِرَ الرَّأْسِ خاشِعاً ... كأنّي حِيالَ القَبْرِ في عَرَفات (٤)
لقد جهلُوا قَدْرَ الإمامِ فأَوْدَعُوا ... تَجالِيدَهُ في مُوحِشٍ بفَلاة (٥)
ولو ضَرَحُوا بالمَسْجِدَيْنِ لأَنْزَلُوا ... بِخَيْرِ بِقاعِ الأرضِ خَيْرَ رُفَاتِ (٦)
تَبارَكْتَ هذا الدِّينُ دينُ مُحَمَّدٍ ... أَيُتْرَكُ في الدُّنيا بغَيْرِ حُماة ؟
تَبارَكْتَ هذا عالِمُ الشَّرقِ قد قَضَى ... ولانَتْ قَناةُ الدِّينِ للغمزاتِ (٧)
زَرَعْتَ لنا زَرْعاً فأَخْرَجَ شَطْأَه ... وبِنْتَ ولمّا نَجْتَنِ الثَّمراتِ (٨)
فواهًا له ألاّ يُصِيبَ مُوَفَّقًا ... يُشارِفُه والأرضُ غيرُ مَواتِ (٩)

---

(١) النضرات : ذوات الحسن والرونق .
(٢) الحجا : العقل .
(٣) والهفى : كلمة يتحسر بها على ما فات .
(٤) حاسر الرأس : عاريه . وحيال القبر : تلقاءه وأمامه .
(٥) تجاليد الإنسان : جسمه وبدنه . والفلاة : الصحراء الواسعة .
(٦) ضرح الميت : حفر له ضريحا . ويريد « بالمسجدين » : المسجد الحرام بمكة ؛ وبيت المقدس ورفات الميت : ما بلي وتكسر من عظامه . يقول : لو أنهم حفروا بأحد المسجدين ضريحا لهذا الجسم لكان حريا بذلك ؛ لأنه خير جسم يدفن في خير بقعة من الأرض .
(٧) قضى مات . والقناة : الرمح . ولين القناة : كناية عن الضعف والوهن . ويريد « بالغمزات » : المطاعن الموجهة إلى الإسلام من أعدائه .
(٨) شطء الزرع : فراخه أو سنبله . وكنى بالزرع : عما قام به الفقيد من أنواع الإصلاح . وبنْتَ : بَعُدْتَ .
(٩) الضمير في «له» يرجع إلى الزرع . ويشارفه : يشرف عليه . والأرض الموات : الجدبة التي لاتنبت . يخشى ألاّ يجد الزرع من يتعهده بعد الفقيد مع خصوبة الأرض وقبولها لما يغرس فيها .

مَـدَدْنَا إلى الأعْلامِ بَعْدَكَ راحَنا ... فرُدَّتْ إلى أعْـطافِنا صَـــفِراتِ (١)

وجــالَت بنا تَبْغى سِواكَ عُيونُنا ... فعُـــدْنَ وآثَرْنَ العَـــمَى شَرِقاتِ (٢)

وآذَوْكَ فى ذَاتِ الإلـــه وأنْكَرُوا ... مكَانَكَ حتّى سَوَّدُوا الصَّفَحاتِ (٣)

رأيتَ الأذَى فى جانِبِ اللّه لذّةً ... ورُحْـــتَ ولَمْ تَهْمُمْ لـــه بَشكـــاة

لقد كنتَ فيهمْ كَوكباً فى غَياهبٍ ... ومَـــعْرفَةً فى أنْفُسٍ نكـــرات (٤)

أبَنْتَ لنا التَّنْزِيلَ حُكْماً وحِكْمَةً ... وفَرَّقْتَ بين النُّور والظُّلُمَـــــات (٥)

ووَفَّقْتَ بين الدِّينِ والعِلْمِ والحِجا ... فأطْلَعْتَ نُـورًا من ثَلاثِ جِهـــاتِ

وَقَفْتَ (لها نُوتُو) و (رينانَ) وَقْفَةً ... أَمَـــدَّكَ فـــيها الرُّوحُ بالنَّفَحـاتِ (٦)

مع قاسم أمين :

ومن الذين اتصل بهم حافظ وجالسهم قاسم أمين ، الذى رثاه بقوله :

لله درُّك كنـــتَ مِـــنْ رجـــل ... لـو أمهلتْكَ غوائلُ الأجـــل (٧)

خُلُقٌ كـــأنْفَاسِ الرياض إذا ... أسْـحرن غبَّ العَارِضِ الهَطِل (٨)

---

(١) يريد «بالأعلام» : المشهورين من العلماء . والراح : جمع راحة ؛ وهى الكف . والأعطاف : الخواصر. وصفرات : أى خاليات .

(٢) شرقات : أى محمرات من البكاء ، تبغى : تريد ، وآثرن : فضّلن .

(٣) يشير بهذا البيت وما بعده إلى المطاعن التى كان يوجهها أعداء الفقيد إليه ؛ وينشرونها فى بعض الصحف تشهيرًا به ؛ وتحقيرا من شأنه .

(٤) الغياهب : الظلمات جمع غيهب ، نكرات : غير معروفة وغير مشهورة .

(٥) يشير بهذا البيت الى الدروس التى كان يلقيها الأستاذ الإمام فى تفسير القرآن .

(٦) هانوتو : جبرائيل هانوتو السياسى المؤرخ الفرنسى . ولد فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٥٣ م . وقد كتب مقالات فى الطعن على الإسلام . وريبان : هو أرنست رينان الفرنسى ؛ ولد فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٢٣ م ؛ وقد كان قسًّا كاثوليكيا ؛ وهو مشهور بمطاعنه فى الدين الإسلامى كصاحبه السابق ؛ وقد ردّ الفقيد على مطاعنهما . وتوفى رينان فى سنة ١٨٩٢ . والروح : جبريل .

(٧) الغوائل : الدواعى المهلكة والمفرد غائلة ، ولله دَرُّك : دعاء بالخير والبركة ، الأجل : النهاية .

(٨) أسحرن : وقت السَّحَر ، العارض : السّحاب المعترض . الهَطِل المتتابع .

وشـمائل لو أنـها مُزِجَـت بطـبائع الأيـام لم تَـحُـلِ (١)

مع البارودى :

وقد كان فى عصره من كبار الشعراء « البارودى » وقد قال فيه :

أمير القـوا فى إنّ لى مستهـامةً بمدح ومَـنْ لى فيـك أن أبلغ المدى .

ولما مات البارودى نشر حافظ رثاءه فى ٢٢ / ١ / ١٩٠٥ قائلاً :

رثاء محمود سامى البارودى باشا :

رُدُّوا عَـلَيَّ بياني بَعْـدَ (محمود) إِنِّى عَيِيتُ وأَعْيا الشِّعْرُ مجهودى (٢)
ماللبلاغَة غَضْـبَىَ ؟ لا تُطاوِعُنى وما لِـحَبْـلِ القَـوافى غيرَ مَمْـدُود ؟
ظَنَّتْ سُكُوتِيَ صَـفْحاً عَنْ مَوَدَّتِهِ فأَسْـلَمَتْني إِلى هَمٍّ وتَسْهيـدِ (٣)
ولو دَرَتْ أَنَّ هذَا الخطْبَ أَفْحَمَني لأَطْلَقتْ مِنْ لِساني كلَّ مَعْقود (٤)
لَبَّيْـكَ يامُؤْنِسَ المَـوْتَى وموُحِشَنا يافارسَ الشِّعْرِ والهَـيْجاءِ والجُود (٥)
مُلْكُ القُلوب ـ وأنتَ المُسْتَقل به ـ أَبْقَى على الدَّهْر منْ مُلْك (ابن داود) (٦)
لقد نَزَحْتَ عن الدُّنيا كـما نَزَحْـتَ عنها لَياليكَ منْ بيضٍ ومنْ سُود (٧)
أَغْمَضْتَ عَيْنَيْكَ عنها وازْدَرَيْتَ بها قَبْـلَ المَـمات ولَمْ تَحْفلْ بِمَوْجُود (٨)
لَبَّيْكَ ياشـاعرًا ضَـنَّ الزَّمانُ بـه على النُّهَى والقَـوافى والأَناشـيدِ (٩)

(١) أى : لم تتحول ولم تتغير ، أى أن صفاته ثابتة غير متقلبة .

(٢) ردوا على بيانى ؛ أى أعيدوه إلىّ بعد أن بَعُدَ عنّى من هول المصاب . وعى : كلّ وتعب .

(٣) أى ظنت البلاغة سكوتى عن رثاء الفقيد إعراضًا عن مودته وتناسياً لصحبته فتركتنى أعذَّب بالهم والسهر .

(٤) أفحمه : أسكته وعقد لسانه ـ الخطب : المشكلة ـ معقود : عاجز عن الكلام .

(٥) الهيجاء : الحرب ـ الجود : الكرم .

(٦) يريد «بابن داود » : نبى الله سليمان عليه السلام ، وبه يُضرب المثل فى سعة المُلك .

(٧) نزحت : بعدت . والبيض والسود : إشارة إلى أيام نَعِم فيها البارودى بالعز والجاه ؛ وأخرى شقى فيها بالأسر وكَفِّ البصر ومصادرة المال والنفى .

(٨) يشير بقوله : « أغمضت عينيك » إلى أن الفقيد كان كُفَّ بصره فى آخر حياته فعاش ضريراً . وازدريت بها : احتقرتها واستخففت بها . ولم تحفل . لم تبال .

(٩) النُّهى : العقول ؛ الواحدنُهية (بالضم) .

مع لطفى السيد ومصطفى كامل :

ومن الذين اتصل بهم حافظ الزعيم مصطفى كامل ، وأحمد لطفى السيد ، وهذه قصيدة وجهها إلى أحمد لطفى حين ترجم كتاب الأخلاق لأرسطو سنة ١٩٢٤ م :

يا كاسِيَ الأخْلاقِ فى ... بلَدٍ عن الأخْلاقِ عارِى
لَمْ يَبْقَ فينا مَن يُجا ... دِلُ فى مَقامِكَ أو يُمارِى (١)
بالأمْسِ قد عَلَّمْتَنا ... أَدَبَ الكِتابَةِ والحُوارِ (٢)
واليومَ قد أَلْطَفْتَنا ... بالطَّيِّباتِ مِن الثِّمارِ (٣)
بكتابِ رَسْطالِيسَ تا ... جِ نَوادرِ الفَلَكِ المُدارِ (٤)
جاهَدْتَ فى تَفْصيلِه ... ووَصَلْتَ لَيْلَكَ بالنَّهارِ
تَزِنُ الكلامَ كأنه ... ماسٌ بِميزانِ التِّجارِ
وتَصُونُ مَعْنى رَبِّه ... صَوْنَ اللآلِىءِ فى المَحَارِ (٥)
وتَضِنُّ دُهْقانَ الكَلا ... مِ كضَنِّ دُهْقانِ النُّضارِ (٦)
حتَّى حَسِبْتُكَ فى الأنا ... ةِ والاختِبارِ والاختِيارِ
صَنَعًا يُصَوِّرُ فى الفُصُو ... صِ لَدَى الفَراعِنةِ الكِبارِ (٧)

---

(١) يمارى : ينازع ، ومقامك : منزلتك .
(٢) يشير بهذا البيت إلى عهد الممدوح فى رئاسته تحرير « الجريدة » وما كان يكتبه فيها من مقالات .
(٣) ألطفه بكذا : أتحفه به .
(٤) تاج نوادر الفلك : أى أثمن نوادر الزمن وأنفسها .
(٥) ربه : أى مؤلفه أرسطوطاليس .
(٦) دهقان الكلام (بالنصب) ، على النداء أى يادهقان . والدهقان (بكسر الدال وتضم) : التاجر . والنضار : الذهب .
(٧) الصنع (بالتحريك) : الحاذق بالصنعة ؛ وشبهه بالمصوّر فى الفصوص لما فى ذلك من مراعاة الدقة ، والفراعنة جمع فرعون

لقد اتصل حافظ بمجالس الأدباء والعظماء فى عصره ، يسمع منهم أحاديثهم ، ودروسهم ، وتجاربهم ، ويُسمعهم شعره وأدبه ، ويحاولون أن يكون فى مكانه اللائق به فى المجتمع ، حتى نال رتبة الباكوية من الدرجة الثانية ، ونال نيشان النيل من الدرجة الرابعة .

وكان يفوق «شوقى » فى الإلقاء، حيث كان يؤثِّر فى مستمعيه بنبرات صوته وروعة إلقائه ، وتأثيره فى عِواطف المستمعين إليه ، وساعدته ألفاظه ومعانيه ، حيث كان حريصاً على حُسن اختيارها وانتقائها ، بل كان يتغنى بالبيت قبل أن يُدخله فى قصيدته ، أما «شوقى » فقد كان شاعرًا عظيمًا ، لكنه لايجيد الإلقاء .

ويذكرون أن طلبة المدارس الثانوية والعالية كانوا فريقين ، أحدهما يتحمس لحافظ ، والآخر لشوقى ، أما الذين فَضّلوا «حافظاً» فقد فضلوه لأن شعره : «غذاء القلب ، وغذاء الوطنية » وأما الذين فضلوا «شوقياً» ففضلوه لما فى شعره من فنّ وخيال ، وقد كتب طه حسين كتابا سماه «حافظ وشوقى » موازناً بينهما .

فى حفل عكاظ :

وقد أنشد حافظ إبراهيم هذه القصيدة فى حفل من الأدباء والشعراء برآسة أحمد شوقى بك بدار التمثيل العربى لتحية جريدة عكاظ يوم ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٠ ، وقد سمى صاحب الجريدة هذا الحفل « سوق عكاظ» . وهى تتضمن مدحاً لشوقى بك رئيس الحفل ، ونعياً على المصريين امتهانهم لجثث ملوكهم الأقدمين :

أَتَيْتُ سُوقَ عُكَاظٍ / أسعى بأَمْرِ الرَّئِيس
أُزْجِى إليهِ قَوافٍ / مُنكَّساتِ الرُّءوس (١)
لَيْسَت بذاتِ رُواء / تُزْهَى به فى الطُّروس (٢)
وَلَا بذَاتِ جَمَالٍ / يَسْرِى بها فى النُّفُوس
لَمْ يَحْبُها فَضْلُ شَوْقى / بقيَّةً مِنْ نَسِيس (٣)
فهنّ قَفْرٌ خَوالٍ / مِنْ كُلِّ معنًى نفيس (٤)
وهنّ جُهْدُ مُقِلٍّ / حَليفِ هَمٍّ وبُوس (٥)
قال الرئيسُ ومَنْ ذا / يقولُ بعدَ الرَّئِيس
سَقَى الحُضورَ شراباً / يُنْسى شرابَ القُسُوس (٦)
مُعَتَّقاً قبل عادٍ / فى مُظْلِماتِ الحبُوس (٧)
تُذْكى الدياراتُ منه / ناراً كنار المجوس (٨)
يُريكَ والليلُ داجٍ / شُموسه فى الكئُوس (٩)
بناتِ أفكار شَوْقى / فى جَلْوة كالعَرُوس
تُزْهَى بمعنًى سَرِىٍّ / أَتَى بمعنًى شَمُوس (١٠)
وليلةٍ من «عُكَاظٍ» / ضَمَّت حُماةَ الوَطيس (١١)

---

(١) أزجى : أسوق .
(٢) الرواء : حسن المنظر . والطروس : الصحف يكتب فيها ، الواحد : طرس .
(٣) النسيس : بقية الروح ، يحبها : يمنحها .
(٤) قفر : خاليات ، ونفيس : عظيم .
(٥) بوس : أى بؤس .
(٦) يريد « بشراب القسوس » : الخمر ، وذلك لما اشتهر به القساوسة والرهبان من ادخار الخمر وتعتيقها فى الأديار .
(٧) عاد : قوم فى العصور القديمة . الحبوس : جمع حبس .
(٨) تذكى : تشعل . ونار المجوس : النار التى يعبدونها ؛ ويضرب بها المثل فى قوة الاشتعال ودوامه . وقد شبه بها الخمر فى الحمرة ، حتى كأنها تلتهب .
(٩) داج : مظلم .
(١٠) السرى : الرفيع . . والشموس : النفور الصعب المنال .
(١١) الوطيس : الحرب . ويريد « بحماة الوطيس » حملة الأقلام .

فكاهاته ومداعباته :

ومن قوة معاناته وحزنه نبعت سخريته وتهكمه مِمَّا حوله ، وميله للنكتة والنادرة ، فكان يُلقى الفكاهة ويخترع النكتة ناقدًا ماحوله ، ساخرًا منه ، بشكل يُضحك مَنْ حوله ، ويجعله معجباً به . يقول فى رجل ضخم البطن والجسم :

عطَّلْتَ فنَّ الكهرباءِ فلم نَجدْ شيئاً يعوقُ مَسيرَها إلاّكا
تَسْرِى على وجْه البَسيطة[1] لحظةً فتجوبها[2] وتحار فى أحشاكا[3]

وقد كانت له مع بعض شعراء جيله وأدباء عصره مجالس أدبية وفكاهية فى المقاهى والمنتديات ، فكان يجلس مع الشاعر خليل مطران وعبد العزيز البشرى ، وإمام العبد ، وكان محمد البابلى من أكثر أصدقائه ملازمة له ، كما كان مشهورًا بفكاهتة الحلوة .

وفى تلك المجالس كانت تدور الفكاهة وتبادُل الطرائف والنوادر ، وقراءة الأدب والاستماع إليه .

وكان يتقبل نقد شعره إذا كان الناقد منفردًا به ، أما إذا كان هذا النقد منشورًا أو معلنًا فإنه يغضب ويحتج ، لأنه حريص على منزلته الأدبية .

اشتهر حافظ بخفة دمه ، وميله للمداعبات ، ولم تقتصر هذه الصفة عليه وحده ، بل كان كثير من أصدقائه وشعراء عصره يشاركونه هذه الصفة ، وبهذا نجد فى شعره وأشعارهم نوادر وطرائف ومواقف تبعث على الضحك والسرور .

---

(١) الأرض .
(٢) تتحرك فيها وتتجول .
(٣) فى أحشائك .

دعابته مع الشيخ أمين تقى الدين :

من ذلك أن الأديب السورى الشيخ أمين تقىّ الدين رُزق مولودًا سماه «حافظاً» وقال فيه :

لى ولـــدٌ بـــميتُه حـــافـــظــــاً تيَـمُّناً(١) بـــحافظِ الشاعـــر

فقال حافظ :

كـحافظ إبراهيــمَ لكـــنّه أجمــلُ خَلْقاً[٢] مــنه فى الظَّاهر
فلــعنةُ اللهِ على « حــافــظٍ» إنْ لم يكــنْ بالشــاعرِ المـــاهر

فقال الشيخ أمين :

واخجـلتى إنْ لم يجـىءْ شـاعرًا يُنسـى أبـاه حكمةَ النّاثر (٣)
شعر نظمـــناه ولـــولا الــذى رُزِقْتهُ مـامـــرَّ بالخــاطـــر

فقال حافظ :

فيا وليدى كن غدًا شاعرًا وابدأ بهجو الوالد الآمر
فالذنب ذنبى وأنا المعتدى هل يسلم الشاعر من شاعر

دعابته مع الهراوى :

وحدث مرة أن غاب « حافظ » عن أصحابه وظل فى بيته ، فذهب صديقه الشاعر محمد الهراوى ليزوره ، ولما وجده على غير عادته ، قال له

(١) تفاؤلاً .
(٢) شكلاً .
(٣) كاتب النثر .



مرتجلاً (١) :

يارئيسَ الشعر قُلْ لى | ماالذى يقضى الرئيس ؟
أنت فى الجيزة خافٍ | مثلما تخفى الشموس
قابع[٢] فى كسر بيت | قد أظلّته الغروس (٣)
زاهدٌ فى كلِّ شىء | مُطرِق ساهٍ عبوس (٤)
أين شعرٌ منك نضرٌ | فَلَناً فيه مسيس (٥)
وحديثٌ منك حلوٌ | يتمناه الجلوس ؟
وفكاهات عذاب | تتمنّاها النفوس
قد جَفَوْتَ (٦) الشِّعرَ حتى | حَدثتْ عنك الطروس (٧)
وهجرت الناسَ حتى | ساءلوا أين الأنيس ؟

فأجابه حافظ على الفور :

أنا فى الجيزة ثاوٍ (٨) | ليس لى فيها أنيسُ
أنْكرَ الأنْسُ مكانى | ونَأى[٩] عنى الجليس
ليست يدرى مَنْ رآنى | أطليق أم حبيس

(١) بسرعة وبدون تفكير .
(٢) قابع : جالس .
(٣) جمع غرس وهى الأشجار .
(٤) ساه : أمن السهو . عبوس : أى عبوسَ الوجه .
(٥) مسيّس : بقية .
(٦) كرهت .
(٧) الكتب والأوراق
(٨) مقيم .
(٩) بعُدَ .

دعابته مع الببلاوى :

وهذه دعابة كتب بها إلى السيد محمد الببلاوى نقيب الأشراف فى عصره لما ولى نقابة الأشراف سنة ١٩٢٠ :

قُلْ للنَّقيب لقـد زُرناَ فَضيلَتَهُ فذادَنا عَنْه حُـرّاسٌ وحُجَّاب (٢)
قدكـان بَابُكَ مَفْتُـوحاً لـقاصده واليومَ أُوصـد دُونَ القـاصِد البابُ (٣)
هَلاّ ذَكَرْتَ (بدار الكُتْبِ)صُحْبَتَنا إِذْ نَحنُ رَغْم صُروف الدَّهْرِ أحبابُ (٤)
لاتَخْشَ جائِزَةً قد جئْتُ أَطْلُبُها إنِّى شَريفٌ وللأشْراف أَحْسَابُ (٥)
فاهْنأ بما نِلْتَ منْ فَضْلٍ وإن قُطعَتْ بَيْنى وبَيْنَكَ بَـعْدَ اليَـوم أَسْبـابُ

مداعباته مع أمير الشعراء أحمد شوقى :

ومن فكاهاته ، وخفة دمه ، وسرعة بديهته ، وميله إلى مداعبة الأصدقاء، ماكان بينه وبين أمير الشعراء ـ أحمد شوقى ـ فقد جرى بينهما مزاح بالشعر ، على عادة الشعراء آنذاك ، فقال حافظ إبراهيم لشوقى :

يَقُولُون : إِنَّ الشَّوْقَ نَارٌ ولَـوْعَةٌ
فما بَالُ شَوْقِي أَصْبَحَ اليوْمَ بَارِدَا

---

(٢) ذادنا : منعنا ، حجاب : جمع حاجب .
(٣) أوصد الباب : أُغلق .
(٤) صروف الدهر : نوائبه ؛ يشير إلى أن السيد محمد الببلاوى كان هو والشاعر يعملان معا فى دار الكتب المصرية .
(٥) يشير بقوله « إنى شريف » ، إلى الحكم الشرعى المعروف من أن الصَّدقة لاتجوز على الأشراف . يريد بالأسباب : روابط المودة .

فحافظ إبراهيم يستغل « التورية » ، وهى احتمال اللفظ لمعنيين ، أحدهما قريب غير مقصود ، والآخر بعيد مقصود ، فشوقى لها معنى قريب هو : الاشتياق والشوق ، ومعنى بعيد ، وهو اسم أحمد شوقى ، وهو المقصود للمداعبة .

وهنا رَدَّ عليه أحمد شوقى بالطريقة نفسها قائلا :

وَحَمَّلْنَا إنْسَانًا وَكَلْبًا أَمَانةً　　فَضَيَّعها الإنسانُ والكلبُ « حافظُ »

فحافظ لها معنى قريب غير مقصود ، وهو المحافظة ، على الشىء ومعنى بعيد هو اسم حافظ إبراهيم ، وهو المقصود للمداعبة بين الشاعرين ، وإن كانت قاسية فى بيت شوقى .

وإنْ كنتَ تلاحظ أن عبارات حافظ إبراهيم فى المداعبة أخفّ أثرًا ، وأقرب إلى المداعبة منها إلى الهجاء ؛ إذ دارت الصفة حول معنى البرودة أوالبرود ، أى برود الطبع ، فى حين دارت الصفة الثانية حول معنى الأمانة ، واقتضى ذكر الأمانة ذكر أشهر الحيوانات تمسكاً بها ، وهو الكلب ، فانتقل البيت - فى رأيى - من المداعبة والمفاكهة إلى الهجاء اللاذع ، أو على الأقل : المداعبة الثقيلة التى تذكّرنا بذلك الأعرابى الذى أتى للمدينة من البادية لأول مرة ، وأراد أن يمدح ممدوحه ، فاعتمد على ذوق الصحراء ، فوصفه بصفات أهمُّها الوفاء ، والقوة المتمثلان فى حيوانين ، هما : الكلب والتيس ، قال :

أَنْتَ كالكلبِ فى الْوفَا　　ءوكالتَّيْس فى قراعِ الخُطُوبِ (١)

ووسط دهشة الحاضرين واستنكارهم فهم الممدوح مراده ، فأعطاه فرصة الإقامة فى المدينة المتحضرة ، ومدحه بعد ذلك فجاء مديحه جميلا ، حضريًّا . . وعلى أية حال فالموقف بين حافظ وشوقى لايتعدى المداعبة الأخوية .

(١) قراع الخطوب : مواجهة المشاكل .

ثقافته :

كانت دراسة حافظ إبراهيم فى «الكُتَّاب » والمدرسة الابتدائية ، والدراسة الفنية فى المدرسة الحربية ، ولم يقتصر على ذلك بل أخذ يقرأ الكتب الأدبية ومِنْ بينها كتاب (الأغانى) للأصفهانى ، ودواوين الشعراء ، وأخذ يختار من أشعار الشعراء ما يحلو له من شعرهم ، ونتيجة لذلك حفظ كثيرًا منه ، وأخذ يُسمع مجالسيه ، وذلك لما كان يتمتع به من ذاكرة قوية .

ولم يقتصر على اللغة العربية ، فدرس اللغة الفرنسية وقرأ فى آدابها ، وأخذ يترجم عن اللغة الفرنسية ، فترجم قصة «البؤساء » للشاعر الفرنسى «فيكتور هوجو » وغيرها ، وفيه يقول :

أعجمىٌّ [1] كادَ يعلو نجْمهُ ... فى سماءِ الشعرِ نجمَ العربى
صافحَ العلياء [2] فيها والتقى ... بالمعرّى [3] فوق هام [4] الشهب [5]
قلت عن نفسك قولاً صادقاً ... لم تشُبْه [6] شائبات [7] الكذب
أنا كا لمنجم [8] تِبْرٌ [9] وثرَى [10] ... فاطرحوا تُرْبى [11] وصونوا ذَهَبى

ولثقته الشديدة فى شاعريته بين هؤلاء المعاصرين قال سنة ١٩٠١ :

(١) أجنبى . .
(٢) المنزلة العالية .
(٣) شاعر عربى .
(٤) رأس .
(٥) النجوم .
(٦) لم تعكّره .
(٧) جمع شائبة وهى مايعكر الصفو .
(٨) كمنجم الذهب مثلا .
(٩) ذهب .
(١٠) أرض .
(١١) تراب .

قُلْ لِلأُلَى[١] جعلوا للشعر جائزة ... فِيمَ الخلاف ؟ ألم يرشدكم الله ؟
إنى فتحت لها صدرًا تليقُ به ... إن لم تُحلُّوه [٢] الرحمن حلاَّه
لم أخْشَ من أحدٍ فى الشعر يسبقنى ... إلا فتًى [٣] ماله فى السبق إلاَّه
ذاك الذى حكمتْ فيه يراعته[٤] ... وأكرمَ اللّهُ والعباس [٥] مثواه [٦]

وهو فى ذلك يعترف بسبق شوقى ، ويعرف جيدًا أن من زملائه الشعراء فى عصره من لمع واشتهر ، ومنهم : البارودى (١٢٥٥ هـ - ١٣٢٢ هـ) ، وإسماعيل صبرى (١٨٥٤م - ١٩٢٣م) ، وأحمد شوقى (١٨٦٨ م - ١٩٣٢م) ، ومحمد عبد المطلب (١٨٧١م - ١٩٣١) ، ومحمد الهراوى ، وأحد محرم ، وخليل مطران (١٨٧١ - ١٩٤٩م) ، وعبد الحليم المصرى ، وأحمد الكاشف ، وولىّ الدين يكن ، وتوفيق البكرى .. وقد عاش مع كل منهم جزءًا من حياته وسمعوا شعره ، وسمع أشعارهم . كما عاصر السياسيين والأدباء ، والزعماء : سعد زغلول ، والشيخ محمد عبده ، وعبد العزيز البشرى ، وقاسم أمين ، وجورجى زيدان ، والمنفلوطى ، ويعقوب صروف ، ومن الفنانين : سيد درويش ، وصالح عبد الحى ، وعبده الحامولى ، وغيرهم .

شاعر الشعب :

نجد فى جيل حافظ وشوقى مَنْ فضَّلوا الأول ، فضلوه لوطنيته ، وهذا حق ؛ فإذا قرأت شعر حافظ إبراهيم وجدت مِنْ موضوعاته وعناوينه كيف كان شَاعِرَ الشعب ، فشعره سِجِلٌّ لأحداثِ عصره ووطنه وماحدث بمصر ، وسعيها للحرية والتقدم ، وإشادة بزعمائها ، وقادتها ، وشعرائها ، وثوارها ،

(١) للذين .
(٢) تجملوه .
(٣) أى : ليس له ، وهو أحمد شوقى .
(٤) قلمه .
(٥) الخديو عباس .
(٦) إقامته .

ونتيجة لما يمرّ به من مواقف نجد شعره يتنوع بين التفاؤل والتشاؤم ، والصمت والشكوى .

وقد كانت وطنيته قوية تجعله يعيش المواقف والأحداث ، ويتابعها ، ولعل فى مقدمة ذلك شعره فى حادث دنشواى حين اعتدى الاحتلال الإنجليزى على تلك القرية الوادعة الآمنة فأشعل فيها النار ، فقامت ثورة الفلاحين ، فحصدهم بالرصاص . كما تمادى المستعمر فعقد المحاكمات للمظلومين ، وحكم عليهم بالإعدام والسّجن .

وطنية حافظ :

حين حدثت حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦م نشر حافظ قصيدته بعد صدور الحكم بخمسة أيام مهاجماً الاحتلال الإنجليزى ، وناقدًا الضعف عند بعض المصريين .

ثم عاد لتصوير هول هذه الحادثة مرة أخرى حين استُقبل الإنجليزى اللورد كرومر ، وهاجم الاحتلال الإنجليزى مرة أخرى .

ثم عاد فى قصيدة ثالثة فى استقبال عميد الإنجليز بعد « كرومر » مدافعاً عن مصر ، ومشيًرا إلى آثار تلك الحادثة الحزينة ، وهذا ما يعبر عن قوة عاطفته الوطنية ، وثورته على الاستعمار ، وحُبِّه لوطنه « مصر » .

وتتجلى وطنية حافظ إبراهيم بوضوح فى شعره ،ومن خلال مواقفه الوطنية من الاستعمار الإنجليزى آنذاك ، ولذا نجده بعد حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ يخاطب الإنجليز والحُكّام متهكما مِمَّا صنعوه بأهل دنشواى المصريين من الفلاحين ، البسطاء بل إنه سخر منهم ، أنهم إذا لم يستطيعوا صيد الحمام أن يصيدوا البشر ، أي يقتلونهم ثم يُؤنبهم على عدم فَهْمِهِم القضية فهماً صحيحًا ، ! ثم يذكّرهم بماضى الاستعمار البغيض ، حيث «محاكم التفتيش» فى إسبانيا باضطهاد المسلمين وظلمهم ، ومصادرة ممتلكاتهم بدون وجه حق وبلا دفاع عنهم ، حتى أخرجوا المسلمين منها سنة ١٦٠٩ م . . كما يذكرهم بنيرون الملك الرومانى الذى أحرق مدينة « روما » وأخذ يراقب النيران وهى تلتهم المدينة سعيدًا مبتهجا . .

يقول حافظ إبراهيم فى **حادثة دنشواى**(١) :

أيُّها الـقـائِمُونَ بـالأَمْـرِ فِينـا ! ... هَـلْ نَسِـيتُمْ وَلاءَنا والـودادَا ؟ (٢)
خَفِّضُوا جَيْشَكُمْ ونَامُـوا هَنِـيئاً ... وابْتَغُوا صَيْـدَكُمْ وجُـوبُوا البِلادا (٣)
وإذا أَعْـوَزَتْكُمُ ذَاتُ طَـوْقٍ ... بين تِلْك الرُّبا فصِيدُوا العبادا (٤)
إنَّما نَـحْنُ والحَـمامُ سَـواءٌ ... لم تُغـادِرْ أَطْـواقُنا الأَجْيـادا (٥)
لا تَظُنُّوا بِنا العُقوقَ ، ولكِـنْ ... أَرْشِدُونا إذا ضَـلَلْنَا الرَّشـادا
لاتُـقيدُوا مِـنْ أُمَّـةٍ بقَتِيلٍ ... صادَتِ الشمسُ نَفْسَه حِينَ صادا (٦)
جـاءَ جهّالُنا بأَمْـرٍ ، وجِئْتُـمْ ... ضِعْفَ ضِعْفَيْه قَسْوَةً واشْتِـدادا (٧)
أَحْسِنُوا القَتْلَ إن ضَنَنْتُمْ بِعَفْوٍ ... أَقِـصاصـاً أَرَدْتُـمُ أَمْ كـيادا ؟
أَحْسنُوا القَتْلَ إن ضَنِنْتُمْ بِعَفْوٍ ... أَنُفُوسـاً أَصَـبْتُمُ أَمْ جَمـادا ؟
لَيْتَ شِعْرِى أَتِلْكَ (مَحْكَمَةُ التَّفْـ ... ـتيش)عـادَتْ أَمْ عَهْدُ (نيرُونَ) عـادا ؟(٨)
كيف يَحْلُو منَ القَوِىِّ التَّشَفِّى ... منْ ضَعيفٍ أَلْقَى إليْـه القِـيادَا ؟

---

(١) نشرت فى ٢ يولية سنة ١٩٠٦ م .

(٢) الخطاب فى هذا البيت وما بعده للإنجليز .

(٣) جاب البلاد : قطعها .

(٤) ذات الطوق : الحمامة المطوّقة ، لأن لها طوقا حول عنقها ، وهو لون يخالف سائر لونها .

(٥) يريد « بالأطواق » فى هذا البيت : أغلال الأسر والاستعباد . والأجياد : الأعناق ، الواحد جيد .

(٦) يقال : أقاد الأمير القاتل بالقتيل ، إذا قتله . ويشير بهذا البيت إلى ماقرره الأطباء من أن وفاة الضابط الإنجليزى كانت بضربة الشمس ، لا بإصابة أحد .

(٧) يريد بجهّالنا : شبابنا الصغار .

(٨) تعرف محاكم التفتيش بالقسوة والظلم واضطهادالناس ومصادرة أملاكهم ؛ ثم إحراقهم من غير أن تترك لهم فرصة للدفاع عن أنفسهم ؛ وقد استغلت تلك المحاكم فى اضطهاد العرب فى أسبانيا فى آخر أيامهم بها حتى تم جلاؤهم عنها فى سنة ١٦٠٩ م . ونيرون ـ كما أشرنا ـ هو الملك الرومانى المعروف بالظلم والقسوة والاستبداد ؛ ومما ينسب إليه أنه أحرق مدينة روما ، وكان يوم إحراقها يشاهد النيران تأكل المدنية وأهلها فيسر بهذا المنظر كأنما ينظر إلى رواية تمثل فى ملهى من الملاهى .

إنّها مُـثْلَةٌ تَـشُفُّ عـن الغَيْـظ ولَسْنـا لِغَيْظِكُمْ أَنْدادًا (١)
أكْرِمُونَا بأَرْضِنا حيثُ كُنتُم إنّمـا يُكْـرِمُ الجَـوادُ الجَـوادا
إنّ عشْرِينَ حجةً بعدَ خَمْسٍ عَلَّمَتْنَا السُّكونَ مَهْمَا تَمادَى (٢)
أُمّةُ النِّيلِ أكْبَرَتْ أَنْ تُعـادِي مَنْ رَمـاها وأَشْفَقَتْ أنْ تُعادَى (٣)
ليس فيها إلاّ كَلامٌ ، وإلاّ حَسْرَةٌ بعدَ حَسْرَةٍ تَتَهادَى

وتبدو قمة وطنيته فى حبه « مصر » وتباهيه بها ، وفخره بماضيها وحاضرها وأمجادها ، فى قصيدة جميلة تغنيها السيدة أم كلثوم ، أو تغنى بعض أبياتها .

ويتجلى فى هذه القصيدة حب حافظ لمصر ، وشعوره الصادق تجاهها ، وهذا واضح من قوة تأثيرها فى نفس قارئها أو المستمع إليها ، كما يتضح من قوة عباراتها ، وجمال لفظها ، وتراكيبها ، وسعة الخيال فيها ، حتى ليُشَبِّه مصر بأنها « تاج العلاء فى مَفْرق الشرق، وأن ترابها تِبرٌ ، ونهرها فُرات ، وسماءها ـ كالسيف ـ لامعة صافية » .

كما يتباهى بأهرامها ، وصمودها ، وشعبها وتاريخها ... وهى من أروع قصائده ،عنوانها «مصر» ،أو «مصر تتحدث عن نفسها » ،لأنه تخيلها تتحدث عن أمجادها .

وقد أنشدها فى الحفل الذى أقيم بفندق « الكونتننتال » لتكريم المرحوم عدلى يكن باشا بعد عودته من أوربا قاطعًا المفاوضة مع الإنجليز ومستقيلا من الوزارة ،وقد نشرت فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢١ م . وها هى ذى القصيدة :

(١) المثلة (بالضم) : التنكيل . وتشف : تكشف وتبين . والأنداد : النظراء ، الواحد نـد (بكسر النون).
(٢) الحجة : السنة .
(٣) أشفقت : خشيت .

وَقَفَ الخَلْقُ يَنظُرونَ جميعًا ... كيف أبنى قَواعدَ المجدِ وَحْدِى
وبُناةُ الأَهْرامِ فى سَالفِ الدَّهْـ ... ـرِ كَفَوْنِي الكَلاَمَ عند التَّحدِّى
أَنا تاجُ العَلاءِ فى مَفرِقِ الشَّرْ ... قِ ، ودُرَّاتُه فَرائـدُ عقْـدى (١)
أَىُّ شَىْءٍ فى الغَرْب قَد بَهَر النَّا ... سَ جَمَالاً ولَمْ يَكُنْ منـه عنْدى ؟
فتُرابِي تبرٌ ، ونَهْرى فُرات ... وسَـمَائِي مَصْقُولَةٌ كـالفرنْدِ (٢)
أينَمَا سِرْتَ جَدْوَلٌ عند كَرْمٍ ... عـند زَهْرٍ مُدَنَّرٍ عـند رَنْـدِ (٣)
ورجالى لو أَنصَفُوهُم لَسادُوا ... مِنْ كُهُولٍ مِلْءَ العيُون ومُرْدِ (٤)
لو أَصابُوا لَهُمْ مَجالاً لأَبْدَوْا ... مُعْجِزاتِ الذَّكاءِ فِى كـلِّ قَصْدِ
إِنَّهمْ كالظُّبَا أَلَحَّ عليها ... صَـدَأُ الدَّهْرِ مِنْ ثَواء وغِمْد (٥)
فإذا صَيْقَلُ القَضاءِ جَلاها ... كُنَّ كالمَوْت مـالَـهُ مِنْ مَـرَدِّ (٦)
أَنـا إنْ قَـدَّرَ الإلَـه مَمَاتِي ... لاتَرَى الشَّرْقَ يَرْفَعُ الرأسَ بَعْدى
مـا رَمـانِي رام وَراحَ سَـلِيمًا ... مِنْ قَديمٍ عنايَةُ اللّهِ جُنْدى
كـم بَغَـتْ دَوْلَةٌ عَلَيَّ وجارَتْ ... ثُمَّ زالَتْ وتلْكَ عُقْبَى التَّعَدِّى
إنّنـى حُرَّةٌ كَـسَرْتُ قُـيُودى ... رَغْمَ رُقْبَى العِدَا وقَطَّعْتُ قِدِّى (٧)

---

(١) العلاء (بالفتح والمد) الرفعة والشرف . والمفرق (كمقعد ومجلس) : وسط الرأس . والفرائد : الجواهر التى لا توائم لها لنفاستها ، الواحدة فريدة . ويريد «بدراته» ممالك الشرق التى كان لمصر الزعامة عليها.

(٢) الفرات : العذب . الفرند : السيف .

(٣) مدنر : أى مختلف الألوان ؛ أو مشرق متلألىء . والرند : شجر طيب الرائحة ، وله حب يقال له : الغار .

(٤) ملء العيون : أى تعجبك مناظرهم . والمرد : جمع أمرد ، وهو الشاب نبت شاربه ولم تنبت لحيته .

(٥) الظبا : جمع ظبة ، وهى حد السيف والسنان ونحوهما . والثواء : طول المكث .

(٦) الصيقل : شاحذ السيوف وجاليها ، والجمع صياقل وصياقلة .

(٧) رقبى العدا ; أى مراقبتهم لى . . القد : القيد قدّ من جلد .

وتماثلْتُ للشِّفاءِ وقد دَا نَيْتُ حَيْني وهَيَّأَ القَوْمُ لَحْدى [1]
قُلْ لمنْ أنْكَرُوا مَفَاخِرَ قَوْمِي مثْل ما أنْكَرُوا مَآثِر وُلْدِى :
هَلْ وَقَفْتُم بقِمَّةِ الهَرَمِ الأكْبر يوماً فرَيْتُمُ بَعْضَ جُهْدى ؟ [2]

وقد مضى شعره يسجل أحداث مصر ، وكأنه يمزج بين شعره ودماء قلبه حُبًّا ووطنيةً ، ورغبةً فى النهضة والتحرر ، كما يسمو بشعره إلى الوحدة العربية وينادى بها بين الدول العربية .

تحية العام الهجرى :

وفى قصيدته «تحية العام الهجرى » نراه يمزج بين الناحية الوطنية والناحية الإسلامية ، فنقرأ من شعره الإسلامى حديثه عن تحية العام الهجرى (المحرم سنة١٣٢٧ — يناير ١٩٠٩) ، حيث يحكى قصة هجرة الرسول ﷺ ، تحفُّه الملائكة وعلى رأسهم جبريل عليه السلام ، وبقلب الرسول ﷺ الإيمان بالله ، وبصدره القرآن الكريم ، حيث هاجر من « مكة » إلى « يثرب » ، أو المدينة المنورة ، كما يشير إلى أثر الإسلام ، وأثر الرسول ﷺ فى العالم حتى اليوم .

ثم ينتقل بعد هذا إلى موضوع آخر يتصل بشئون العالم الإسلامى وقت ذاك فى تركيا . وإيران ، ومراكش ، والجزائر و الهند . . إلخ ، أى جولة على العالم الإسلامى ونكتفى من القصيدة بالجزء الخاص بالهجرة ، فهيا نقرأ :

أَطَلَّ على الأكْوانِ والخَلْقُ تَنْظُرُ هلالٌ رآهُ المُسْلمُونَ فكَبَّرُوا
تَجَلَّى لهم فى صُورَةٍ زَاد حُسْنُها عَلَى الدهرِ حُسْنًا أنّها تتَكَرَّرُ [3]
وبَشَّرَهُمْ منْ وَجْهه وجَبِينه وغُرَّتِه والناظِرين مُبَشِّرُ

---

(١) الحين (بالفتح) : الهلاك .
(٢) فريتم : أى فرأيتم .
(٣) تجلى : ظهر وتكشف .

وأَذْكَـرَهُمْ يومـًا أَغَـرَّ مُحَجَّـلاً — به تُوِّجَ التاريخُ والسَّعْدُ مُسْفِرُ (١)
وهاجَرَ فيـه خيرُ داعٍ إلى الهُدَى — يَحُـفُّ بـه مِنْ قُوَّة اللّهِ عَسْكَر
يُماشـيه جِبـْرِيلٌ وتَسْعَى وراءَه — مَلائِكةٌ تَرْعى خُطاهُ وتَخْفُرُ (٢)
بِبُشْراهُ بُرْهانٌ من اللّه ساطِعٌ — هُدًى ، وبِيُمـناه الكـتابُ المُطَهَّرُ
فكانَ على أَبْواب (مـكَّةَ) رَكْبُه — وفى (يَثْرِبٍ) أنـوارُه تَـتَفَجَّرُ (٣)
مَضَى العامُ مَيْمُونَ الشُّهور مبُارَكًا — تُـعَـدَّدُ آثَارٌ لـه وتُسَـطَّرُ
مَضَى غَيْرَ مَذْموم فإِنْ يَذْكُرُوا له — هَناتٍ فطَبْعُ الدَّهْرِ يَصْفُو ويكْدُرُ (٤)
وإنْ قيلَ أَوْدَى بالأُلُوفِ أجابَهُمْ — مجيبٌ : لقد أَحْيَا المَلايين فانْظُرُوا (٥)
إذا قيسَ إِحْسانُ امرِئٍ بِإساءَةٍ — فأَرْبَى علَيْها فالإِساءَةُ تُغْفَر (٦)
ففيه أفاقَ النائمـون وقـد أَتَتْ — عليهمْ كأَهْلِ الكَهْف فى النَّوم أَعْصرُ (٧)
وفى عالَمِ الإِسْـلام فى كـلِّ بُقْعَةٍ — لَـه أَثَـرٌ بـاقٍ وذكْـرٌ مُعَـطَّرُ

مزج الوطنية بالناحية الإسلامية :

ثم يستطرد الشاعر فى قصيدته مازجاً بين الناحية الإسلامية والوطنية ،

(١) يقال : يوم أغر محجل ، إذا كان مشهورًا ، وأصل هاتين الصفتين من النعوت المحمودة فى الخيل ، والأغر منها : ماكان فى جبهته بياض . والمحجل : ماكان البياض فى قوائمه . والمسفر : المضىء المشرق . والمقصود بهذا اليوم يوم هجرة الرسول ﷺ وسلم من مكة إلى المدينة .

(٢) يماشيه : يمشى معه . وتخفر : تحرس .

(٣) يثرب : الاسم القديم لمدينة رسول اللّه ﷺ . وشبه انبثاق الأنوار بتفجر الماء .

(٤) الهنات : الهفوات اليسيرة التى تحتمل أمثالها .

(٥) أودى بهم : أهلكهم .

(٦) أربى : زاد .

(٧) يشير بقوله «أفاق النائمون » إلى بعض الشعوب التى هبت فى العام المتحدث به تطالب بحريتها ودستورها بعد أن سكتت على الذل والاستعباد مدة طوية ؛ ومن هذه الشعوب : الشعب التركى والفارسى والمصرى .

ولذا نراه فى قصيدة أخرى قالها عقب الحرب العالمية الأولى ، واحتلال الحلفاء مدينة «أيا صوفيا » بتركيا ، يقول فى آخر هذه القصيدة ، جامعاً الناحية الدينية والوطنية ؛ ومذكِّرًا ببيت المقدس ، والبيت الحرا م ب المكَرمة ، وبئر زمزم ، ويقصد معابد النصارى والمسلمين :

تَبارَكْتَ ، (بَيْتَ القُدْس) جَذْلاَنَ آمِنٌ
ولا يَأْمَنُ (البَيْـتُ العَتيقُ) المُـحَرَّ
أَيُرْضِيكَ أَنْ تَغْـشَى سَنابِكُ خَيْلِهِمْ
حِماكَ وَأَنْ يُمْنَى (الحطِيمُ) و(زَمْزَمُ)
وكـيف يذلُّ المسـلمونَ وبَيْـنَهُمْ
كتابُكَ يُتْـلَى كـلَّ يَوْمٍ ويُـكْرَمُ
نبيـُّكَ مَحْزُونٌ ، وبَيْـتُكَ مُـطْرِقٌ
حَـياءً ، وأَنْـصارُ الحَقيـقةِ نُوَّمُ
عصَيْنا وخـالَفْـنا فعاقَبْتَ عادلاً !
وحَكَّمْتَ فينا اليومَ مَـنْ لَيْسَ يَرْحَـ

الرثاء :

وقد برع حافظ فى فنّ الرثاء ، أى : الحديث عن مآثر الموتى ومحاسـ حتى قالوا : إن رثاءه كان يُذيب قلوب مستمعيه ويبكيهم ، ولذا قال نفسه ، وعن شعره :

إذا تصفَّحتَ ديوانى لتقرأَه وجَدْتَ شِعْر المرَاثى نصفَ ديوانى

وسرُّ تفوقه فى هذا الشعر أنه كان ينظر لِمَنْ يرثيه لاعلى أنه فرد من الأفرا بل على أنه نموذج للسلوك والأخلاق والقيم ، وهكذا كانت نظرته للز

(١) سنابك الخيل : أطراف حوافرها ، ويُمنَى : يُبتلى ، والحطيم : ما بين الركن وزمزم والمقام
(٢) كتابك : القرآن الكريم .
(٣) نُوَّم : جمع نائمين .

والمصلحين ، فموت الإمام الشيخ محمد عبده ليس موت فردٍ عادى ، بل هو توقف صَوْتٍ يدعو للإصلاح الاجتماعى ، والدفاع الدينى ، والنهضة الوطنية . . كذلك الأمر بالنسبة للزعيم مصطفى كامل ، والزعيم سعد زغلول ، فموتُ كُلٍّ منهما موتٌ لصوت وطنى مخلص غيور ، وينطبق هذا على الذين رثاهم حافظ كلٌّ حسب وضعه ودوره وطبيعة مهمته .

وقد ساعد على ذلك أن المجتمع كان يهتم بإقامة حفلات التأبين (١) مما شجع الشعراء على المشاركة فيها .

وهو فى رثائه الزعيم مصطفى كامل يقول ثلاث قصائد ، الأولى ألقاها على قبر الفقيد ساعة دفنه ، والثانية فى ذكرى الأربعين ، والثالثة بعد مرور عام على وفاته ، مما جعل الدارسين يعتبرونه « شاعر الوطنية الحقة »، وجديرًا بتلقيبه بشاعر النيل .

يقول فى رثاء مصطفى كامل :

أَوَ كلَّما هَزَّ الرَّجَاءُ مُهَنَّدًا ... بَدَرَتْ إليه غَوائِلُ الأقدَار (٢)

عَزَّ القَرارُ عَلَّى ليلةَ نَعْيِه ... وشَهِدْتُ مَوْكِبَهُ فقَرَّ قَرارى (٣)

وتَسابَقَتْ فيه النُّعاةُ فطائِرٌ ... بالكَهْرباءِ ، وطائِرٌ ببخَارِ (٤)

شاهَدْتُ يومَ الْحَشْرِ يومَ وفَاتِه ... وَعلِمْتُ منه مَراتِبَ الأَقْدارِ (٥)

ورأيتُ كَيف تَفِي الشُّعوبُ رجالَهَا ... حَقَّ الوَلاءِ وواجِبَ الإكْبار

---

(١) رثاء الميّت .

(٢) المهند : السيف . وغوائل الأقدار ، أى المهلكات منها ، أى: كلما ظهر ثورى مات .

(٣) يريد بقوله : «وشهدت » الخ : أنه لما رأى وفاء الأمة للفقيد فى جنازته هدأت نفسه .

(٤) يريد « بالطائر بالكهرباء » : الرسائل البرقية . « وبالطائر بالبخار » : القطار، أى: الخطابات والصحف، والنعاة : مبلّغو خبر الوفاة .

(٥) وعلمت منه مراتب الأقدار : أى كيف تنزل الأمة عظماءها منازلهم التى يستحقونها ـ يوم الحشر: تشبيه للزحام بيوم القيامة .

تسعُونَ ألفاً حَــوْلَ نَعْشِكَ خُشَّعٌ ... يَمْشُون تَحْتَ (لوائِكَ) السَّيَّارِ (١)
خطُّوا بأَدْمُعهِمْ على وَجْـه الـثَّرى ... للحُزْنِ أَسْطَارًا عــلى أَسْطــار (٢)
آنًا يُــوالُون الضــجيجَ كــأنّــهمْ ... رَكْبُ الحــجيجِ بكَعْبــة الزوَّار (٣)
وتخَالُهُمْ آناً لِفَرْطِ خُــشُوعِهْم ... عنــد المُــصَلَّى يُنْصِتُونَ لِقَارى (٤)
غَــلَبَ الخُشوعُ عليـهمُ فدُموعُهُمْ ... تجرى بلا كَــلَحِ ولا اسِتنْــثار (٥)
قــد كنت تحت دُموعهمْ وزفيـرهم ... مــا بينَ سَيْلٍ دافــقٍ وشَــرار
أَسْعَى ، فـيأْخُذُنِي اللَّهيبُ فأَنْثَنِي ... فيَــصُدُّنِي مُتَــدفِّقُ التَّــيّار (٦)

---

(١) اللواء : العلم . ويشير إلى جريدة اللواء التى كان يصدرها الفقيد .
(٢) الثرى : الأرض ، والأسطار معروفة .
(٣) آنًا : وقت .
(٤) قارى : قارىء .
(٥) بلا كلح : أى بلا عبوس ولاتقطيب . والمسموع : كلاح وكلوح (بالضم فيهما) . والاستنثار من الأنف معروف . ويريد « بتجرى بلا كلح ولا استنثار » : أن الدموع تجرى بطبيعتها بلا عبوس ولا غيره مما يصحب الدموع عادة .
(٦) يصوز حركته بين تيار البَشَر وزحامه الشديد .

ويقول فى رثاء محمد فريد بك (١) [فى سنة ١٩١٩]:

مَـــنْ لِيَوْم نحنُ فيه ؟ مَنْ لِغَدْ ؟ مــــاتَ ذو العَزْمَة والرّأى الأسَدُّ ! (٢)
حَــلَّ (بالجُمْعة) حُــزْنٌ وأَسًــى ومَشَى الوَجْدُ إلى يوم (الأحَدْ) ! (٣)
وبدَا شِــعْرى علــى قِرْطاسِه (٤) لَـــوْعةً ســـالَتْ علــى دَمْعٍ جَمَدْ !
أيُّها النــيلُ لقــد جَــلَّ الأسَى كُنْ مِداداً (٥) لى إذا الدَّمْعُ نَفد (٦)
واذْبُلِى يازَهْـرَةَالـرَّوْضِ ! ولا تَبْـسِمى للـــطَّلِّ فالعَيْشُ نَكِدْ (٧)
والزَمِ النَّــوْح أيُــا طَــيْرُ ! ولا تَبْتَهِجْ بالشــَّدْوِ فالشَّــدْوُ حَدَدْ (٨)
فلقـــد وَلَّى (فَريدٌ) وانْــطَــوَى (رُكْــنُ مــصرٍ) وفتَــاهَا والسَّـــنَدْ
خــالد الآثارِ ! لا تَخْشَ البِلَى ليس يَبْلَى مَــنْ لـــه ذِكْرٌ خَلدْ (٨)

(١) المرحوم محمد بك فريد ؛ هو ابن فريد باشا ناظر الدائرة السنية ؛ ولد فى مدينة القاهرة فى رمضان سنة ١٢٨٤هـ ؛ (يناير سنة ١٨٦٧ م) . وبيته من أكبر بيوت مصر وأمجدها، ونال شهادة الحقوق فى مايو ١٨٨٧م ، ثم اشتغل بالدائرة السنية ؛ ثم انتقل إلى النيابة العمومية ؛ ثم إلى نيابة الاستئناف . وقد أنعم عليه بالرتبة الثانية فى أغسطس سنة ١٨٩١ م . وكان من أقوى دعاة النهضة الوطنية ؛ والآخذين بيد الوطنيين من الكتاب أصحاب الصحف ؛ واستقال من منصبه وقيد اسمه فى جدول المحامين أمام المحاكم الأهلية فى أول يونيه سنة ١٨٩٧ م ؛ وظل مشتغلا بالمحاماة سبع سنين، ثم ترك كل عمل ليفرغ لخدمة الأمة من الناحية السياسية ؛ فكان خير عون للمرحوم مصطفى كامل باشا ، وقد صحبه فى كثير من رحلاته إلى أوربا ؛ واختاره مصطفى كامل لرئاسة الحزب الوطنى فى فبراير سنة ١٩٠٨ م ، وتوفى فى برلين عاصمة ألمانيا فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٩ ؛ وأحضرت جثته إلى مصر ودفنت قرب مسجد السيدة نفيسة .

(٢) يريد «باليوم والغد» : الحاضر والمستقبل . والأسدّ : الأصوب .

(٣) الأسى : الحزن . . وكنى «بيومى الجمعة والأحد» عن مسلمى مصر وقبطها .

(٤) وَرَقِه .

(٥) حبر .

(٦) انتهى .

(٧) الطل : الندى ؛ أو أخف المطر وأضعفه ، ونكد : حزين .

(٨) شدو الطير : ترنمه وتغريده . والحدد: الحرام الذى لايحل أن يرتكب .

(٩) البلى : الفناء ، وخلد : بقى.

زُرْتَ (بَرْلِينَ) فنـادَى سَمْتُها : نَزَلَتْ شَمْسُ الضُّحَى بُرْجَ الأَسَدْ (١)
واختَـفَتْ شَمْسُكَ فيها ، وكَذا تَخْـتَفِي فى الـغَرْبِ أقمـارُ الأَبَدْ
ياغَرِيبَ الدّارِ والقَبْرِ ! ويـا سَلْوَةَ (النِّيلِ) إذا ما الخَطْبُ(٢)جَدّ
وحُسَامًا فَـلَّ حَـدَّيهِ الرَّدَى وشهابًا ضـاءَ وَهْـنًا وخَمَـد (٣)
قـل لصَبِّ (النِّيل) إنْ لاقَيْـتَه فى جِـوارِ الدَّائمِ الفَـرْدِ الصَّمَدْ (٤)
إن (مِصْراً) لاتَنِى عنْ قَصْدِها رغـم مـا تَلْقَى وإن طـالَ الأَمَدْ
جئـتُ عنـها أَحْمـلُ البُشْرَى إلى أوّلِ الـبانِينَ فى هـذا البَـلَدْ
فاستَرِحْ واهْـنأْ ونَمْ فى غِبْـطَةٍ قـد بَذَرْتَ الحَبَّ والشَّعْبُ حَصَدْ
آثَرَ (النِّيلَ) عـلى أمْـوالِـهِ وقُـواهُ وهَـواهُ والـوَلَدْ (٥)
يَطلُبُ الخَيْرَ (لمصرٍ) وهْـوَ فى شِقْوَةٍ أحْلَى منَ العَـيْشِ الرَّغَـدْ(٦)

---

(١) يحتمل هذا البيت معنيين : أحدهما : أنه يريد وصف الفقيد بالقوة وجلال الشأن ؛ فشبهه حين نزل برلين مدينة القوة بالشمس حين تنزل برج الأسد ؛ والثاني ما يقوله قدماء المنجمين من أن نزول الشمس فى برج الأسد دليل على وقوع الموت ؛ ويكون هذا البيت بالمعنى الثانى ترشيحًا للبيت الذى بعده .

(٢)الخَطْب : المشكلة والأمر الشديد.

(٣) فل حديه : ثلمهما . ، والردى : الموت ، وَهْنًا : وقتاً . خمد : انطفأ.

(٤) صب النيل : عاشقه . ويريدبه (المرحوم مصطفى كامل باشا) .

(٥) آثر النيل : فضله . يشير بهذا البيت إلى هجرة الفقيد إلى أوربا فى سبيل بلاده وتركه ماله وأهله وولده .

(٦) العيش الرغد : الطيب الواسع . ويشير بهذا البيت إلى ماتجرعة الفقيد فى غربته من بؤس وشقاء ؛ وإيثاره هذا البؤس على العودة إلى وطنه المحتل .

ويقول فى رثاء باحثة البادية (١) [نشرت فى سنة ١٩١٨م]:

(مَلَكَ) النُّهَى (٢) لا تَبْعَدِى ... فالخَلْقُ فى الدنْيا سِيَرْ
إنِّى أَرَى لَكِ سِيرَةً ... كالرَّوضِ أَرَّجَهُ الزَّهَرْ (٣)
رَبَّى أَبُوكِ (٤) النَّاشِئيـ ... ـنَ فعاشَ مَحمودَ الأثَرْ
وسَلَكْتِ أَنتِ سَبِيلَه ... فى الناشِئاتِ مِنَ الصِّغَرْ
رَبَّيْتِهنَّ على الفَضِيـ ... ـلةِ والطَّهارَةِ والخَفَرْ (٥)
وعلى اتِّباعِ شَرِيعَةٍ ... نَزَلَتْ بها آىُ السُّوَرْ (٦)
فلبَيْتِكُمْ فَضْلٌ على الْـ ... أَحياءِ أُنْثَى أو ذَكَرْ
للهِ دَرُّكِ إنْ نَثَرْ ... تِ ودَرُّ (حفْني) إنْ نَثَرْ
قد كنتِ زَوْجًا طَبَّةً ... فى البَدْوِ عاشَتْ والحَضَرْ (٧)

---

(١) باحثة البادية : هى السيدة ملك ناصف بنت المرحوم حفنى ناصف بك ؛ ولدت بالقاهرة سنة ١٨٨٦م وتلقت مبادىء العلوم فى مدارس أولية مختلفة ؛ ثم دخلت المدرسة السنية فنالت الشهادة الابتدائية فى سنة ١٩٠٠م؛ ثم نالت إجازة التدريس من قسم المعلمات ؛ ومارست التعليم فى مدارس البنات الأميرية ؛ وتوفيت فى سنة ١٩١٨ م . وكانت من فضليات الكاتبات والباحثات ، بذلت جهدًا كبيرًا فى الدعاية إلى نهضة المرأة المصرية بعد المرحوم قاسم أمين بك ؛ وكانت تفضل السفور على الحجاب ؛ ولها مقالات كثيرة طبعت كلها فى كتاب سمته (النسائيات) وسلسلة محاضرات ألقتها فى إدارة الجريدة التى كان يصدرها حزب الأمة ؛ وإلى هذه المقالات وتلك المحاضرات يشير حافظ فى هذه القصيدة .

(٢) النُّهَى : العقل .

(٣) أرّجه : طيبه .

(٤) أبوها : الأديب حفنى ناصف ، كان مشهورا بالنثر الأدبى .

(٥) الخفر : شدّة الحياء .

(٦) القرآن الكريم .

(٧) يشير بقوله : « فى البدو إلخ » ، إلى أنها كانت زوجًا لعبد الستار الباسل بك أحد مشايخ عرب الفيوم . والطبة : الماهرة الحاذقة بعملها .

سادَتْ عـلى أَهْـلِ القُـصُو ر ؛ وسـوَّدَتْ أَهْـلَ الوَبَرْ (١)
غَـرِبيَّـةٌ فى عِـلْـمِهـا مَـرْمُـوقَـة بينَ الأُسَـرْ
شَـرْقِيَّـةٌ فـى طَبْعِهـا مَخْـدُورَةٌ بيـن الحُجَـرْ (٢)
بَيْـنَا تَـراهَـا فى الطُّـرُو سِ تَـخُـطُّ آيـاتِ العِـبَرْ (٣)
وتُـرِيكَ حِـكْمَـةَ نابِـهِ عَـرَكَ الحـوادِثَ واختَـبَرْ
فـإذا بِهـا فى مَـطْبَـخٍ تَطْهُو الطَّعـامَ علـى قَدَرْ (٤)
وإذا بِهـا قَـعَـدَتْ تَخِيـ ـطُ وتَرْتَضِى وَخْـزَ الإِبَـر
فـتَخَـرتْ بـوالـدهـا ، ووا لِـدُهـا بِحلْيَتِهـا افتَـخَرْ
بالـعـلم حَـلَّتْ صَـدْرَها لا بـاللآلِىءِ والـدُّرَرْ
فـانْظُر شَـمائِـلَ فـكْرِهـا بالـلِه يَـوْمَ (المـؤْتَـمَرْ) (٥)
واقْـرأْ (مُـحاضَرَةَ الجَرِيـ ـدَة) والمقَـالاتِ الـغُـرَرْ
وارجِـعْ إلى مـا أَوْدَعَـتْ عـند المـَجَلاَّتِ الـكُبَـرْ

(١) أهل الوبر : هم أهل البادية ؛ لأن بيوتهم من الوبر ، وأهل القصور : أهل المدن .
(٢) مخدورة : غير مكشوفة .
(٣) الطروس : الصحائف التى يكتب فيها .
(٤) على قدر : أى بحساب .
(٥) يريد المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى سنة ١٩١١ م ، وتوالت جلساته خمسة أيام ؛ وكان لهذا المؤتمر غرضان : أولهما : النظر فى حال المسلمين الاقتصادية والاجتماعية والأدبية . والثانى : الرد على مطالب الأقباط التى طلبوها فى مؤتمرهم المنعقد بأسيوط قبل ذلك فى ٦ مارس من السنة المذكورة . وكان رئيس المؤتمر الإسلامى المرحوم مصطفى رياض باشا ، وقد ألقت الفقيدة محاضرة فى هذا المؤتمر تتعلق بشئون المرأة .

ومن شعر حافظ فى رثاء الشيخ على يوسف :

تاللَّه ما جَهلتْ فيه مُصيبتَها
ولا الّذى فَقَدتْ منْ كاتِب العرَب (١)
لكنّها أَلِفتْ - والأمْرُ يَحْزُبُها -
فَقْدَ الرِّجالِ ومَوْتَ السَّادةِ النُّجُبِ (٢)
وعَلَّمَتْها اللّيالى أَنْ تُصَابِرَها
فى الحادثات وإِنْ أَمْعَنَّ فى الحَرَب (٣)
كم أَرْجَفُوا بَعْدَ مَوْتِ الشَّيْخِ وارْتَقَبُوا
مَوْتَ (المُؤَيَّد) فينا شَرَّ مُرْ تَقَب (٤)
وإنْ يَمُتْ تَمُتْ الآمالُ فى بَلَدٍ
لولاَ (المُؤَيَّدُ) لَمْ يَنْشَطْ إلى طَلَب
صُبابَةٌ منْ رَجاءٍ بين أَضْلُعِنا
قد باتَ يرْشُفُ منها كُلُّ مُغتَصَبِ (٥)
أَلَمْ يَكُنْ لِبَنِي (مِصْرٍ) وقد دُهِمُوا
مِنْ ساسَة الغَرْب مثْلَ المَعْقلِ الأشب (٦)
كم انْبَرَتْ فيه أَقْلامٌ وكم رُفِعَتْ
فيه مَنائِرُ منْ نَظْمٍ ومنْ خُطَب

(١) تالله : واللّه .
(٢) حزبه الأمر : اشتد عليه وضغطه ، السادة : جمع سيد ، نجب : جمع نجيب .
(٣) الحرب (بالتحريك) : اشتداد الغضب ، تُصابرها : تبادلها الصبر .
(٤) أرجف القوم : خاضوا فى الأخبار السيئة على أن يوقعوا بين الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شىء .
(٥) الصبابة : البقية . إن المؤيد بقية من رجاء وعزاء يلوذ بها كل مغصوب الحق .
(٦) الضمير فى « يكن » للمؤيد . والمعقل : الحصن . والأشب : الممتنع بما حوله من السياج والسلاح ، وهو من قولهم : شجر أشب ، أى ذو شوك مشتبك بعضه ببعض، والاستفهام لتقرير الحكم والواقع .

وكان مَيْدانَ سَبْقٍ للأُلَى (١) غَضِبُوا
للدِّين والحَقِّ مِنْ داعٍ ومُحْتَسِب
فكم يَراعِ حَكيمٍ فى مشارِعِه
قد التقَى بيرَاعِ الكاتبِ الأرِبِ (٢)

كان حافظ قوى العاطفة فى شعره ، وقد كان شعره ، على عكس مظهره الخارجى ، فقد كان ـ ظاهريًا ـ ضحوكاً مرحاً يميل للسرور والمداعبات ، لكن أعماقه كانت مليئة بالحزن ، حتى لقد شبهه أحمد أمين فى مقدمة ديوانه بأنه : «كالشمعة تضىء وهى تحترق ، أو كالممثل يجيد تمثيل دور الضاحك وهو فى نفسه يذوب حسرات» لذا كان نصفُ شعره رثاءً .

وهو فى شعره الوصفى يجعلنا نتعرف عليه تعرفًا واضحًا ، كما يُطلعنا على بعض جوانب نفسه ، عندما يصف كساءً له ، أو يتحدث عن نادٍ رياضىّ ، أو عن خزان أسوان حين أُسِّس . . كما يسجل فى قصيدة رائعة خواطره الصادقة بمناسبة حريق ميت غمر سنة ١٩٠٢ ، أو يتحدث عن اللغة العربية بعنوان « اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها » ، فى حفل ببعض المدارس الرائدة ، ومنه قصيدته الشهيرة فى مدْرسة فى بورسعيد .

كما نتعرف من شعره على عصره وبعض أحداثه ، وما قام به ، من ذلك قصيدته عن رحلته إلى إيطاليا سنة ١٩٢٣ ، أو دعوته للإحسان ، أو تشجيع جمعية للعميان ، أو الاحتفال بإقامة ملجأ ، أو جمعية للطفل ، ومن أطرفها حديثه عن غلاء الأسعار ، أو الشكوى من الاحتلال الإنجليزى ، ومطلعها :

لقد كان فينا الظُّلْمُ فوضى فَهُذِّبتْ حواشيه حتى بات ظلماً منظَّماً

---

(١) للذين .
(٢) المشارِع : المناهل ، الواحد مَشْرَع (بفتح الميم والراء) . والأرِب : البصير الفطن ، يراع : قلم .

حيث يتهكم من الاستعمار ، فكأنه ثبّت الظلم بتنظيمه . أو تشجيع مظاهرة نسائية قامت بها نساء مصر فى الثورة الوطنية المصرية سنة ١٩١٩ ، وقد تأخر نشرها بالصحف ، فلم تنشر إلاَّ سنة ١٩٢٩ ، وهى قصيدة جميلة . أو تأييده لمشروع إقامة جامعة مصرية ، ونشرت سنة ١٩٠٧ ، أو الاهتمام برعاية الأطفال .

فى رعاية الأطفال :

وها هى ذى قصيدته فى رعاية الأطفال التى أنشدها فى الحفل الذى أقامته هذه الجمعية فى (الأوبرا) فى ٨ أبريل سنة ١٩١٠ م :

شَبَحاً أَرَى أَمْ ذاكَ طَيْفُ خَيالِ ؟
لا ، بَلْ فَتاةٌ بالعَراءِ حيالى (١)
أَمْسَتْ بِمَدْرَجَةِ الخُطُوب فما لَها
راعٍ هُناكَ وما لها مِنْ وَالِي (٢)
حَسْرَى ، تَكادُ تُعيدُ فَحْمَةَ لَيْلِها
نارًا بِأَنّاتٍ ذَكَيْنَ طِوال (٣)
ما خَطْبُها ، عَجَبا ، وما خَطْبى بِها ؟
مالى أُشَاطِرُها الوَجيعَةَ مالى (٤)
دانَيْتُها ولِصَوْتِها فى مَسْمَعى
وَقْعُ النِّبال عَطَفْنَ إِثْرَ نِبال (٥)

---

(١) العراء (بفتح العين) : الفضاء الذى لا يستتر فيه شىء ، يستفسر بتعجب عمن يراها لضعفها وهزالها .

(٢) مدرجة الخطوب : أى طريق النوائب والمشاكل ، أى ليس لها ولى أمر .

(٣) ذكين : أى توقدن واشتعلن ، وحسرى : حزينة ، فحمة ليلها : سواد ليلها .

(٤) ما خطبها : أى ما شأنها ، وأشاطرها : أشاركها .

(٥) عطفن : رجعن ، دانيتها : قربت منها ، إثر : بعد .

وسألْتُها : مَنْ أنت ؟ وهْيَ كأنّها
رَسْمٌ على طَلَلٍ من الأطْلال (١)
فتَملْمَلَتْ جَزَعا وقالت : حاملٌ
لَم تَذر طَعْمَ الغَمْض مُنْذُ لَيالى
قد ماتَ والدُها ، وماتَتْ أُمُّها
ومَضَى الحِمامُ بعمِّها والخال (٢)
وإلى هُنا حَبَسَ الحيَاء لِسانَها
وجَرَى البُكاءُ بدَمْعها الهَطَّالِ
فَعلمْتُ ما تُخْفى الفَتاةُ ، وإنّما
يَحْنُو على أمْثالها أمْثالى

إسلام عمر :

وقد برع فى الشعر الإسلامى ، وله قصيدة طويلة عن إسلام عمر بن الخطاب يقول فيها :

رأيتَ فى الدِّين آراءً مُوَفَّقَةً
فأنْزَلَ الله قُرآنًا يُزكِّيها (١)
وكنتَ أوّلَ مَنْ قَرَّتْ بصُحْبَتِه
عَيْنُ الحَنِيفَة واجتازَتْ أمانيها
قد كنتَ أعْدَى أعاديها فصرْتَ لها
بنعْمَة الله حصْناً من أعاديها (٤)

---

(١) الرسم : أثر الدار بعد تحطمها . شبه هذه الفتاة برسوم الأطلال فى التحول والضآلة .
(٢)الحِمام : الموت بكسر الحاء .
(٣) يزكيها : يعززها ويؤيدها . ويشير بهذا البيت إلى ما كان من عمر ـ رضى الله عنه ـ حين كان يرى الرأى فينزل به القرآن ، حتى بلغت موافقاته نيفًا وعشرين آية ، منها آية التحريم فى الخمر لما قال : « اللهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا » . ومنها آية الاستئذان فى الدخول ، وذلك أنه دخل عليه غلامه ، وكان نائمًا ؛ فقال : « اللهم حرم الدخول» فنزلت آية الاستئذان الخ .
(٤) يشير الشاعر بهذا البيت إلى ما عُرف عن عمر من شدته على النبى والمسلمين قبل إسلامه ، ثم ما كان منه بعد ذلك من إعزاز الإسلام بدخوله فيه .

خَرَجْتَ تَبْغِى أذاهَا فى (محمَّدها) وللحنِيفَـة جَبّـارٌ يُـوالِيهـا (١)

فلَمْ تكدْ تَسْمَعُ الآيات بالِغـةً حتى انْكَفَأْتَ تُناوِى مَنْ يُناوِيها (٢)

سَمِعْـتَ (سُـورَةَ طَه) مـــن مُرتِّلِهـا فَزَلْزَلَتْ نيَّـةً قـد كنتَ تَنْـويهـا (٣)

وقُلتَ فيهـا مقـالاً لا يُطَـاوِلُـه قَوْلُ المُحِبِّ الّذى قـد بات يُطْرِيهـا (٤)

ويـومَ أَسلَمْتَ عَـزَّ الحَقُّ وارتَفَعَتْ عن كاهل الـدِّين أثقالٌ يُعانِيهـــا (٥)

وَصاحَ فيـه (بِـلاَلٌ) صَيْحَـة خَشَعَتْ لهـا القُلـوبُ ولَبَّـتْ أَمْـرَ بَاريهـا (٦)

---

(١) بواليها : يناصرها ، وهو الله تعالى . ويشير الشاعر بهذا البيت والأبيات بعده إلى السبب فى إسلام عمر، وذلك أنه خرج فى يوم من الأيام يواصل أذاه للنبى ﷺ فلقيه نعيم بن عبد الله وأخبره بإسلام أخته وزوجها سعيد بن زيد ، وعيره بذلك ، فرجع عمر إليهما غاضبا ، وكان عندهما خباب بن الأرت ومعه صحيفة فيها سورة طه يقرئهما إياها ، فلما دنا عمر من البيت سمعهم ، وأحسوا هم به ، فاختفى خباب ، ودخل عمر ، فعثر على الصحيفة وقرأ ما فيها ، فأعجب به وأطراه ، ومال قلبه إلى الإسلام ، فقصد إلى النبى ﷺ وأسلم على يديه .

(٢) انكفأ : رجع . وتناوى : تناوىء ، أى : تعادى .

(٣) يريد « بالنية » النية التى كان ينويها عمر قبل إسلامه من إيذاء رسول الله ﷺ .

(٤) لا يطاوله : لا يغالبه . وأطراه يطريه : أحسن الثناء عليه وبالغ فى مدحه ، ومقال : قول .

(٥) الكاهل : مقدم أعلى الظهر مما يلى العنق .

(٦) بلال : هو ابن رباح ، وكان مولى لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، اشتراه ثم أعتقه ، وكان له خازنا ، ولرسول الله ﷺ مؤذنًا ، ومات رحمه الله بدمشق سنة عشرين هجرية . ويشير الشاعر بهذا البيت إلى إظهار المسلمين أمر دينهم بسبب إسلام عمر بعد ما كانوا يخفونه خوفًا من المشركين ، وجهر بلال بالأذان ، باريها : أى بارئها .

فأنتَ فى زَمَن (المخْتَـار) مُنْجِـدُهـا
وأَنْتَ فـى زَمَن (الصِّدِّيقِ) مُنْجيها (١)
كـم اسـتراك رَسُـولُ الله مُغْتَبِطًـا
بحِكمَـةٍ لكَ عنـد الـرَّأيِ يُلْفيهـا (٢)

وعن عمر وبيعة أبى بكر يقول :

ومَـوْقفٍ لكَ بَعْدَ (المُصْطَفَى)افْتَرَقَتْ
فيـه الصَحَابـةُ لمـّا غـابَ هاديهـا (٣)
بايَعْتَ فيـه (أبـا بَكْـر) فبايَعَـه
علـى الخـلافَة قاصيهـا ودانِيهـا
وَأُطْفِئَتْ فتْنَةٌ لـولاكَ لاستَعَرتْ
بيـن القَبـائِل وانسابَتْ أَفَاعيهـا (٤)
بـاتَ النبـىُّ مُسَجَّـى فـى حَظيرتِـهِ
وأنتَ مُسْتَعِرُ الأحْشَاءِ داميهـا (٥)
يَهيـمُ بين عَجيـجِ النـاس فـى دَهَشٍ
منْ نَبأة قد سَرَى فى الأرض ساريها (٦)

(١) يريد بالصدّيق : أبا بكر أول الخلفاء الراشدين . ويشير بالشطر الثانى من هذا البيت إلى الخلاف الذى سبق مبايعة أبى بكر ، وحسمه عمر يوم السقيفة ، ومناصرته لأبى بكر مدّة خلافته ، وسيشير الشاعر إلى ذلك بعد ، والمختار هو محمد ﷺ .

(٢)استراك : أصلها استرءاك ، أى طلب رأيك ، يلفيها : يجدها .

(٣) يشير إلى اختلاف المسلمين فى يوم السقيفة بعد موت النبى ﷺ ، وما كاد يلحقهم من انقسام الكلمة فى اختيار خليفة لهم ، وإلى فضل عمر يومها بلمه شعثهم، وإسراعه إلى مبايعة أبى بكر بالخلافة ، والمصطفى هو الرسول ﷺ .

(٤) استعرت : اتقدت ، أفاعى : ثعابين .

(٥) سجى الميت : مد عليه ثوبه وغطاه به .

(٦)هام يهيم : ذهب على وجهه لا يدرى أين يذهب . والعجيج : الصياح ورفع

تَصيحُ مَنْ قال نَفْسُ المصطفى قُبِضَتْ
عَلَوْتُ هامَتَه بالسَّيْفِ أَبْريها (١)

اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها :

كما اهتم باللغة العربية ، وقال القصيدة التى أشرنا إليها آنفًا ، وعنوانها : « اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها » والتى نشرت فى سنة ١٩٠٣ م ، ومنها :

رَجَعْتُ لنَفْسى فاتَّهَمْتُ حَصاتِى
ونادَيْتُ قَوْمى فاحْتَسَبْتُ حَياتِى (٢)
رَمَوْنى بعُقْمٍ فى الشَّباب وليْتَنى
عقمْت فلَم أَجْزَعْ لقَوْلِ عُداتِى (٣)
وَلَدْتُ ولَمَّا لَم أجِدْ لعَرائِسى
رجالاً وأكْفاءً وَأَدْتُ بَناتى (٤)

=الصوت . والنبأة : الصوت الخفى . ويريد وفاة النبى ﷺ . ويشير بهذا البيت والأبيات الخمسة بعده إلى ما تولى الناس وعمر معهم من الدهش بوفاة النبى ﷺ حتى إن عمر وقف بينهم يهدّدهم بقطع رأس كل من يقول : « مات محمد » حتى جاءهم أبو بكر ، فخطبهم خطبة ذكرهم فيها بقوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل)الآية ، فعادوا إلى صوابهم .

(١) الهامة : الرأس .

(٢) رجعت لنفسى : أى تأملت . والحصاة : الرأى والعقل . واحتسبت حياتى : عددتها عند الله فيما يدخر . يقول على لسان اللغة العربية : إننى عدت إلى نفسى وفكرت فيما آل إليه أمرى ، فأسأت الظن بمقدرتى ، وكدت أصدّق ما رمونى به من القصور ، وناديت الناطقين بى أن ينصرونى فلم أجد منهم سميعًا ، فادخرتُ حياتى عند الله .

(٣) العداة : الأعداء . يقول: اتهمونى بأنى لا ألد على حين أنى فى ريعان شبابى . وليتنى كنت كما قالوا فلا يحزننى قولهم . وكنى بالعقم هنا عن ضيق اللغة وجمودها .

(٤) يريد « بالعرائس » : الألفاظ المجلوة الحسنة . ووأد البنت : دفنها حية ، أكفاء بسكون الكاف جمع كفء .

وسعْتُ كتابَ الله لَفْظًا وغايةً
وما ضقْتُ عن آيٍ به وعظاتِ (١)
فكيف أَضيقُ اليومَ عن وَصْفِ آلَةٍ
وتَنْسيقِ أسماءٍ لِمُخْترعاتِ ؟
وأَسْمَعُ للكُتَّاب فى مصرَ ضَجَّةً
فأَعْلَمُ أنّ الصّائحِين نُعاتى (٢)
أَيَهْجُرُنى قومى - عفَا الله عَنْهُمُ -
إلى لُغَةٍ لَمْ تتّصلْ برُوَاةِ (٣)
سَرَتْ لُوثَةُ الإفْرنْج فيها كما سَرَى
لُعابُ الأفاعى فى مَسيل فُراتِ (٤)
فجاءَتْ كَثْوبٍ ضَمَّ سَبْعين رُقْعَةً
مُشَكَّلَةَ الأَلْوان مُخْتلفاتِ
إلى مَعْشَرِ الكُتَّاب والجَمْعُ حافلٌ
بَسَطْتُ رَجائى بَعْدَ بَسْط شَكاتى (٥)
فإمّا حَياةٌ تَبْعَثُ المَيْتَ فى البِلَى
وتُنْبِتُ فى تِلْكَ الرُّمُوس رُفاتى (٦)
وإمّا مَماتٌ لا قيامةَ بَعْدَهُ
مَماتٌ لعمرى لَمْ يُقَسْ بمماتِ (٧)

(١) الآى : جمع آية . وكتاب الله : القرآن الكريم .
(٢) ضجة : صوت مرتفع ، نُعاة : جمع ناعٍ ، وهو المخبر بالموت ، كأنه يخبر بموت اللغة العربية .
(٣) أى : يتركوننى إلى لغة ضعيفة فيها عاميّة وألفاظ أجنبية .
(٤) لوثة بضم اللام عدم الإبانة ، ولعاب الأفاعى (الثعابين) : سمومها ، والفرات : الماء العذب .
(٥) الشكاة : الشكوى ، بسطت رجائى : عرضت أملى فى الحفاظ على اللغة العربية .
(٦) البلى : الموت ، تبعث : تحيى ، الرموس جمع رمس : القبور ، والرفات ما تكسر وفَنِىَ ، أى : بقايا الميت .
(٧) قيامة : بَعْثٌ وعودة للحياة . لم يقس بممات : ليس مثله موت آخر .

مدرسة البنات ببورسعيد :

ولـه قصيدة عنوانها مدرسة البنـات ببورسعيد، أنشدها فى حفل أقيم ببور سعيد فى ١٩ مايو سنة ١٩١٠ م لإعانة تلك المدرسة :

كَـمْ ذا يكُـابِـدُ عاشـقٌ ويُـلاقى
فـى حُـبِّ مِـصْـرَ كثِيـرَةِ العُشّـاق

إنـى لأَحْمـلُ فـى هَـواكِ صَبابَـةً
يا مِصْـرُ قد خَـرَجَتْ عن الأطْـواقِ(١)

لَهـفى عليـكِ مَتَـى أراكِ طَلِيقَـةً
يَحْمِـى كريـمَ حِمـاكِ شَعْـبٌ راقـي

كَلِـفٌ بَمْحُمـود الخِـلال مُتَيَّـمٌ
بالبَذْلِ بيـن يَـدَيْـك والإنْفـاق (٢)

إنّـى لُتطْـرِبُنـى الخِـلالُ كريَمـةً
طَـرَبَ الغَـريبِ بأَوْبَـةٍ وتَلاقـى (٣)

وتَهُـزُّنِى ذكْـرَى المُـروءَة والنَّـدَى
بيـن الشمائِلِ هِـزَّةَ المشْـتاق

الشكوى فى شعره :

وقد كثرت الشكوى فى شعْره ، ومِنْ ذلك قصائدة :

إلى آدم أبى البشر ، وحسرة على ما فات .

وحين مـرّ بدارٍ كان يقيم فيها وسط مزارع فى الجيزة ، وقد قضى فيها بعض أيام شبابه ، فلما مرّ بها تحركت الذكريات فى نفسه حنينًا . كما كثر شعره الذى كتبه ، وهو فى السودان ، متشوقًا لمصر ، شاكيًا مما هو فيه .

(١) الأطواق : جمع طوق ، وهو الجهد والطاقة ، صبابة : حب
(٢) الكلف (بفتح الكاف وكسر اللام) : الشديد الحب للشيء ، والخلال الصفات ،مُتيّم : محب .
(٣) أوْبة : عَوْدَة ورجوع ، تلاقى : لقاء .

وحين مرض ذات يوم فلم يَزُرْهُ أحـدٌ أنشد قائلا :

مرضنـا فما عـادنا عائـد ولا قيـل أيـن الفتـى الألمعـى (١)
ولا حَـنّ طرسى إلـى كاتب ولا خفّ لفـظ علـى مَسْمَعِ (٢)
سكتنا فعز علينا السكـوت وهان الكلام على المـدّعـى

كما كان يهتم بالفقراء ، وعمل الخير ، وفى ذلك يقول :

إِنِّـى أَرَى فُقَـراءكُـمْ فـى حاجَـة - لو تَعْلَمُـونَ - لقائِـلٍ فَعّـالِ
فَتسابَقُـوا الخَيْراتِ فهِىَ أَمامَـكُمْ مَيْـدَانُ سَبْقٍ للجـواد النّـال (٣)
والمُحْسنُون لهـمْ علـى إحْسانِهِـمْ يـومَ الإثـابَـةِ عَشْـرَةُ الأَمْثـال(٤)
وجَزاءُ رَبِّ المُحْسنينَ يَجِـلُّ عَـنْ عَـدٍّ وعَـنْ وَزْنٍ وعَـنْ مكْيال (٥)

شعرة المسرحى :

حاول حافظ إبراهيم أن يكتب المسرحية الشعرية ، وهى مسرحية شعرية وطنية تسجل الموقف الخالد المتجدد بين الشعوب الضعيفة والاستعمار ، حيث يتصور وجود جريح من أهل (بيروت) هو وامرأته ، مشيرًا إلى حادث وقع سنة ١٩١٢ ، اعتدى فيه الإيطاليون على مدينة (بيروت) .

وهذه المحاولة المحدودة من الأدب التمثيلى تكاد تكون الوحيدة من شعر حافظ فى هذا الفن ، لأنه ليس شاعرًا مسرحيًا كما هو الحال عند أمير الشعراء أحمد شوقى ، الذى جمع بين القصيدة والمسرحية الشعرية .

---

(١) الألمعى : الذكى ، عادنا عائد : زارنا زائر .
(٢) طرسى : الصحيفة . والمسمع : الأذن والسمع .
(٣) الجواد : الكريم ، والنال : كثير العطاء .
(٤) الإثابة : الجزاء ، يشيرا إلى قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ .
(٥) يجل : يكثر ويعظم ، ورب المحسنين : الله تعالى .

وهذا الجزء الذى اخترته لك يصور حوارًا بين الجريح العربى اللبنانى ، وزوجته ليلى . وقد وردت فى الديوان تحت عنوان، منظومة تمثيلية قالها الشاعر عقب ضرب الأسطول الطليانى لمدينة بيروت انتقامًا من الأتراك ؛ وذلك فى عهد نشوب الحرب الطرابلسية التى وقعت بين الإيطاليين والترك فى سنة ١٩١٢ م . وقد فرض الشاعر هذه الرواية بين جريح من أهل بيروت، وزوج له اسمها (ليلى) ، وطبيب ، ورجل عربى .

الجريح :

(لَيْلاىَ)ما أنا حَىٌّ ... يُرْجَى ولا أنا مَيْتُ
لَمْ أَقْضِ حَقَّ بِلادى ... و (هأنا) قَدْ قَضَيْتُ (١)
شَفَيْتُ نَفْسِى لَوَ انِّى ... لَمّا رُمِيتُ رَمَيْتُ
(بَيْرُوتُ) لو أنّ خصماً ... مَشَى إلىَّ مَشَيْتُ
أو داس أرْضَكِ باغ ... لَدُسْتُه وبَغَيْتُ
أو حَلَّ فيكِ عَدُوٌّ ... مُنازِلٌ ما اتَّقَيْتُ
لكنْ رَماكِ جَبانٌ ... لو بان لى لاشْتَفَيْتُ (٢)
(لَيْلاىَ) لا تحْسَبِينى ... على الحياة بَكَيْتُ
ولا تَظُنِّى شَكاتِى ... مِنْ مَصْرَعى إن شَكَوْتُ (٣)
ولا يُخِيفَنْكِ ذكْرِى ... (بَيْرُوتَ) أَنّى سَلَوْتُ (٤)
(بَيْرُوتُ) مَهْدُ غرامِى ... فيها وفيك صَبَوْتُ (٥)

(١) قضيت : مت .

(٢) اشتفى : أخذ بثأره فشفى بذلك نفسه .

(٣) الشكاة : الشكوى .

(٤) أى: لا تخشى ياليلاى من سلوتى إياك حينما أذكر بيروت ، فكلاكما فى الحب عندى سواء ، كما يتبين ذلك من الأبيات الآتية .

(٥) صبا : مال ، أى : إن شوقى وغرامى وميلى فيك وفيها .

جَــرَرْتُ ذَيْــلَ شَــبابى   لَهْــوًا وفيهــا جَـرَيْتُ
فيهــا عَرَفْتُــك طفْــلاً   ومــنْ هَــواكِ انْتَشَيْتُ (١)
ومــنْ عُيــون رُباهَــا   وعَــذْب فيـك ارتَوَيْـتُ (٢)
فيهــا (للَيْلـى) كِنَـاسٌ   ولـِي مــن العــزِّ بَيْـتُ (٣)
فيهــا بَنَـى لِـيَ مَجْـدًا   أوائِــــلِي وبَنَــــيْتُ
(لَيْلَـى) ! سراجُ حَياتـِي   خَبَـا فمــا فيــه زَيْـتُ (٤)
قــد أَطْفَـأَتْـهُ كُـــراتٌ   مــا مــنْ لَظَــاهُنَّ فَوْتُ (٥)
رَمَــى بهــنَّ بُغَـــاةٌ   أَصَبْنَنـى فتَــوَيْتُ ! (٦)

ليلى :

لــو تُفْتَـدَى بحيَــاتى   مـنَ الـرَّدَى لفَـدَيْتُ !
ولــو وَقــاكِ وَفــىّ   بمُهْجَــة لــــوَقَيْتُ !
إنْ عشْــتِ أو مـتِ إنِّـى   كمــا نَـوَيْتِ نَـوَيْتُ (٧)

الجريح :

(لَيْــلاىَ) عِيشـى وقَـرِّى   إذَا الحِمــامُ دَعــانِــى
(ليـلاىَ) سـاعـاتُ عُمْـرى   مَعْــدُودةٌ بالثَّـــوانِي

(١) انتشيت : سكرت .
(٢) الربا : ما ارتفع من الأرض ؛ الواحدة ربوة . وعذب فيك ، أى بريقك العذب .
(٣)الكناس : بيت الظبى الذى يأوى إليه .
(٤) خبا : خمد وطفىء .
(٥) يريد « بالكرات » قذائف المدافع المعروفة بالقنابل . واللظى : النار ، أو لهبها . والفوت : الانفلات .
(٦)توبت : أى هلكت ، والأصل فى الفعل توى كسر الواو ، وقد جاء فى هذا البيت مفتوح الواو على لغة طيىء .
(٧) كما نويت نويت : أى أنى جعلت حياتى وموتى تبعًا لحياتك وموتك .

فكَفْكِفِى مِنْ دُمُوعٍ تَفْرِى حُشاشَةَ فانِي (١)
وَمَهِّدى لِىَ قَبْرًا على ذُرا (لُبنانِ)
ثم اكتُبى فوقَ لَوْحٍ لكلِّ قاصٍ ودَانِى :
هُنَا الذى ماتَ غدرًا هنا فَتَى الفتيانِ

تقدير الأدباء له :

وتقديرًا لشعره ولمنزلته الشعرية أقام له بعض أدباء الغرب مأدبة لتكريمه هو ، وشوقى ، ومطران ، فقال سنة ١٩٢٨ :

قد قرأناكم فهشَّتْ نُهانا (٢) فاقتبسنا نورًا يضىء السبيلا
فاقرءُونا ومَنْ لنا أن تصيبوا بين أفكارنا شعاعاً ضئيلا

ومازال الدراسون ومحبّو الشعر يكرّمون « حافظ إبراهيم» إلى أن لقى ربه سنة ١٩٣٢ . وبقى شعره حيًّا فى ديوانه، وفى أعماله الأدبية مثل : ترجمة البؤساء لفيكتور هوجو . ومثل قصة : ليالى سطيح . رَحِمَ الله الفقيد وأدخله فسيح جناته جزاء ما قَدَّم لبلده وأُمته .

(١) تفرى : تقطع . والحشاشة : بقية الروح فى المريض .
(٢) هشت نُهانا : انشرحت عقولنا سرورًا .

المراجـع

١ ـ إبراهيم المازنى ، شعر حافظ .

٢ ـ أحمد هيكل ، تطور الأدب الحديث فى مصر .

٣ ـ حافظ إبراهيم ، ليالى سطيح .

٤ ـ ديوان حافظ إبراهيم .

٥ ـ طه حسين ، حافظ وشوقى .

٦ ـ عباس محمود العقاد ، شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى .

٧ ـ عمر الدسوقى ، فى الأدب الحديث .

٨ ـ مجلة فصول ـ عددان خاصان عن حافظ وشوقى .

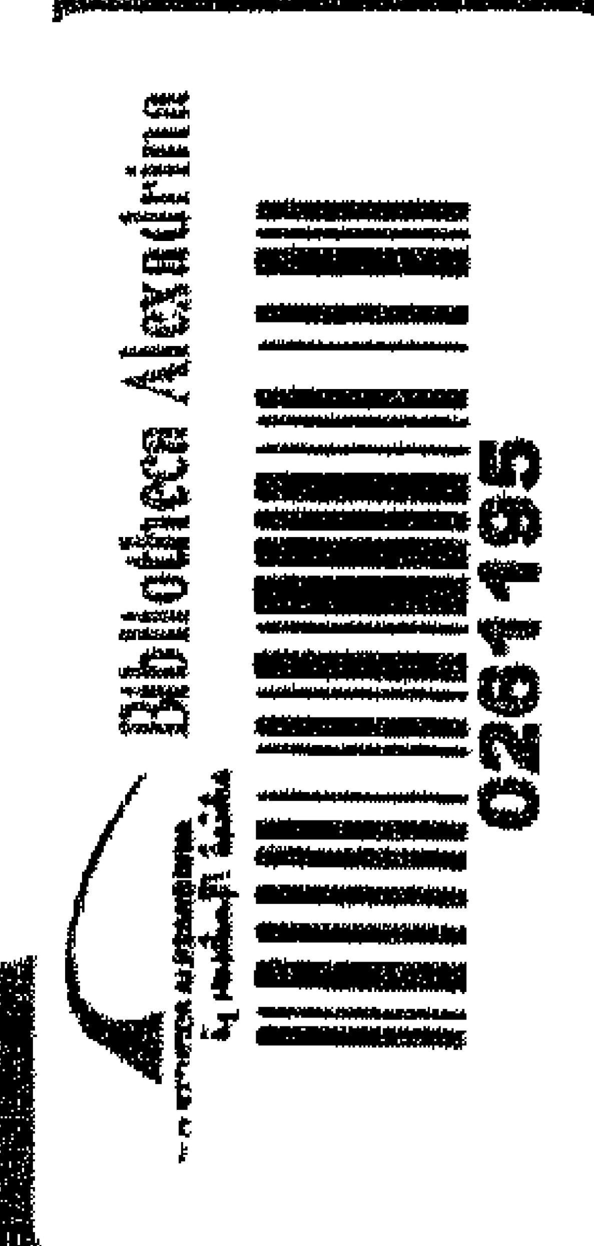
٩ ـ مقدمة ديوان حافظ لأحمد أمين .

مشاهير الشعراء العرب...

للناشئين والشباب...

يسر الدار المصرية اللبنانية أن تقدم للشباب والناشئين هذه المجموعة من أعلام الشعر العربى، الذين عاشوا فى عصور وبيئات مختلفة، وتركوا لنا بصمات واضحة فى مسيرة الشعر العربى. يقدم كل كتاب من هذه السلسلة ترجمة موجزة ووافيه للشاعر وعصره، والتيارات الأدبية التى أثرت فى شعره، كما يلقى الضوء على جوانبه السياسية والاجتماعية والثقافية، مع الإلمام بسمات كل شاعر والتعريف بالبيئة التى نشأ فيها، والمدرسة الشعرية التى يمثلها أو الاتجاه الشعرى الذى ينسج على منواله، مع وضع نماذج ومختارات من شعره.

لقد تم اختيار هذه المجموعة من الشعراء المطبوعين المبدعين على أيدى مجموعة من الكُتّاب المتخصصين فى هذا المجال - وجدير بكل شاب أن يلم بحياتهم، وشعرهم الجيد الراقى الرفيع الذى يتغلغل فى النفوس ويهز الوجدان.



تصميم و رسوم

محمد حجى